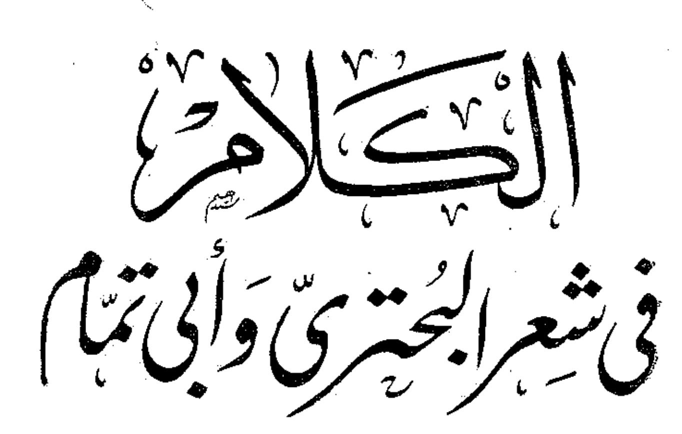
al-Jabalāwī, Muḥammad Ṭāhir

محمد طاهر الجبلاوى

al-Kalām



ملتزم الطبع والنشر
دار الفكر العربى

فهرس الكتاب



تقـــــدمة

ليس هذا الـكتاب كتاباً فى حياة البحترى وأبى تمام . ولـكنه كتاب فى الكلام عن شعرهما وما يتصل به . لذلك لم نذكر فيه عن تاريخهما إلا ما يحتاج اليه القارىء فى فهم هـذا الشعر ومعرفة اتجاهاته .

نشأ أبو تمام والبحترى فى أوائل القرن الثالث للهجرة . وعاش البحترى حتى أدرك أواخره . وعاصر الشاعران عهداً من عهود التطور والانقلاب فى الدولة العربية . فكان شعرهما مرآة صادقة لذلك العهد .

وأبو تمام والبحترى شاعران مجددان . وشعرهما يختلف كثيراً عن شعر من تقدمهما من الشعراء ، بل ومن أتى بعدهما كذلك . لهذا كثر الـكلام عنهما واختلفت وجوه النظر في شعرهما .

ونحن فى هذا الـكتاب نعطى فـكرة عن الشاعرين . والمؤثرات النفسية والاجتماعيه التى أحاطت بكل منهما . ونتكلم

عن طبيعة النقد عندالعرب . ونعرض آراء النقاد المتقدمين فيهما، ونبدى رأينا فيها ، ونتناول بالتحليل بعض القصائد الممتازة من شعرهما . ونضعهما فى ميزان النقد الحديث . حتى يستطيع دارس الأدب فى العصر الحديث : أن يتذوق هذا الشعر الرفيع من مورد صافى المشارب خال من الشوائب .

وقد أسميته : الكلام — فى شعر البحترى وأبى تمام — وهو اسم ينطبق على موضوع الكتاب . وأرجو أن أكون قد وصلت إلى بغيتى من إبراز النواحى الشعرية ، والأبانة عن أغراض الشعر . لشاعرين هما فى مقدمة شعراء اللغة العربية .

محمد طاهر الجبلاوى

شاعران

كان الشعراء يجتمعون فى كل جمعة فى القبة المعروفة بهم بجامع بغداد ينشدون الشعر ويعرض كل منهم على أصحابه ما يكون قد نظمه بعد مفارقتهم فى الجمعة التى قبلها . فبينما هم مجتمعون يسمعون إنشاء بعضهم بعضاً ظهر شاب فى أخريات الناس فى زى الاعراب فلما فرغ كل منهم وقطع إنشاده التفت الشاب اليهم وقال : قد سمعت إنشادكم منذ اليوم . فاسمعوا إنشادى ، فقالوا هات فأنشد : فحواك عين على نجواك يا نذل ثم مر فيها منشداً حتى أتى إلى قوله:

تغاير الشعر فيه إذ سهرت له حتى ظننت قوافيه ستقتتل

وكان من الحاضرين أبو الشيص فعقد عند هذا البيت خنصره ، ثم استمر الشاب يلقى حتى انتهى من قصيدته . ثم أنشد قصيدة أخرى . فقالوا له لمن هذا الشعر فقال لمن أنشدكموه. قالوا : ناشدناك الله من تكون ؟ فضحك وقال أنا أبو تمام الطائي ، فرفعوا مجلسه وعظموه تعظيما كبيراً ا

قال على بن الجهم : واشتد اعجابنا به لدماثة أخلاقه وفصاحة

منطقه وجودة شعره . ثم انى ما عرفت عقد خنصر أبي الشيص هل كان اعجاباً به مما سمع فى البيت من البديع المرقص ، أو أخذ عليه فى إسكان الياء فى قوله : حتى ظننت . وهى ضرورة جائزة عند الشعراء . والحق أن تخفيف الياء وإسكانها مما يجيزه الشعراء لغير ضرورة .

وما كان هذا ليغيب عن أبي الشيص . ولكنه أخذ بجمال البيت ورقته وانصرف الى ما يعرضه هذا الفتى المجهول من دقيق اللفظ وبديع المعنى بين جمع من كبار الشعراء ، أخذوا كما أخذ أبو الشيص .

كان هذا أول عهد أبي تمام بمجالس الشعراء فى بغداد وأول ظهوره بين رجال الأدب فيها . . . وذاع خبره وانتشر ذكره ، وتحدث الناس بشعره . وأقبل الخلفاء والأمراء ورجال الدولة : يدعونه اليهم ويقدمونه على غيره من شعراء عصره ورجال الأدب فيه . وهو عصر حافل بالشعراء المبرزين . وحسبك أنه جمع أمثال على بن الجهم ودعبل الخزاعى والبحترى وديك الجن الحمصى ، وأبو الشيص وأنبت بن المعتز وابن الرومى وغيرهما من الشعراء الفحول .

وأجيز أبو تمام على شعره بالخلع والجوائز الثمينة وأخذت تتدفق عليه الأموال من كل جانب . وفى مقدمة من مدحهم المأمون والمعتصم والواثق . وفى قول ان أحمد بن المعتصم وقع له بالموصل على قصيدته التى يقول فى مطلعها :

ما فى وقوفك ساعة من باس تقضى زمام الأربع الأدراس

ومن غزلها قوله :

بكر إذا ابتسمت أراك وميضها نَوْر الاقاح برملة ميعاس
وإذا مشت تركت بصدرك ضعف ما بحليها من كثرة الوسواس
قالت وقد حم الفراق فكأسه قد خولط الساقى بها والحاسى
لا تنسين تلك العهود فانما سمّيت إنسانا لأنك ناسى

ومنها فى مدح بنى العباس

فالأرض معروف السماء قرى لها وبنو الرجاء لهم بنو العباس
القوم ظل الله أسكن دينه فيهم وهم جبل الملوك الراسى
فى كل جوهرة فرند مشرق وهم الفرند لهؤلاء الناس

وقيل إنه لما وصل فى مدح الأمير إلى قوله

إقدام عمرو فى سماحة حاتم فى حلم أحنف فى ذكاء إياس

قال له أبو يوسف يعقوب بن الصباح الكندى الفيلسوف :

الأمير فوق من وصفت . كيف تشبه ولد أمير المؤمنين بأعراب أجلاف ، وهو أشرف منزلة وأعظم محله ؟ فانقطع وأطرق ثم رفع رأسه وأنشد :

لا تنكروا ضربى له من دونه مثلا شروداً فى الندى والباس
فالله قد ضرب الأقل لنوره مثلا من المشكاة والنبراس

واستمر فى إنشاده حتى أتم القصيدة . ولما أخذت من يده لم يجدوا البيتين فيها فعجبوا من سرعة فطنته . واهتز ابن المعتصم لذلك طرباً وبهت له متعجباً ووقع له بالموصل .

ويقال إن الفيلسوف الكندى قال لابن المعتصم أى شيء طلبه فأعطه فانه لا يعيش أكثر من أربعين يوماً ، لانه ظهر فى عينه الدم من شدة الفكرة ، وصاحب هذا لا يعيش إلا هذا المقدار ، فقال له ما تشتهى ؟ فقال أريد الموصل فأعطاه إياها . فتوجه اليها وبقى هذه المدة ومات .

وفى قول آخر إن أبا تمام لما خرج بعد إنشاء القصيدة قال الفيلسوف الكندى : هذا الفتى يموت قريباً لأن ذكاءه ينحت عمره كما يأكل السيف الصقيل غمده . وسواء أكان القول الأول هو الصحيح أو القول الثانى . فان الرواية فى الحالين تدل على أثر

هـذه الفـكرة المرتجلة فى حينها ودهشة الأمير وجلسائه لتلك البديهة المفحمة ، وهزيمة الفيلسوف الـكندى على مكانته وسمو قدره أمام الأمير . وقد لاذ بطبه وحكمته من منطق أبى تمام وسرعة بديهته !!

ومدح أبو تمام عبدالله بن طاهر: وهومن السادةالمعروفين بالأدب وعلو الهمة . . تولى خراسان وتولى مصر . ومما قيل فيه وهو بها .

يقول أناس إن مصر بعيدة   ومابعدت مصر وفيها ابن طاهر

حدث محمد بن العباس اليزيدى قال : لما شخص أبو تمام الى عبـد الله بن طاهر وهو بخراسان ومدحه بالقصيدة التى يقول فى مطلعها .

أهن عوادي يوسف وصواحبه   فعزما فقدما أدرك النجح طالبه

أنـكر عليـــه أبو العميثل قوله « أهن عوادى يوسف وصواحبه » وقال لأبى تمام لم لا تقول ما يفهم؟ فقال لأبى العميثل: لم لا تفهم ما يقال ؟ فاستحسن منه هـذا الجواب على البديهة . ونثر ابن طاهر على أبى تمام ألف دينار فلم يمسها بيده ترفعا عنها. فأغضبه ذلك . وقال يحتقر فعلى ويترفع على . وأبطأ بجائزته .

وكان يبعث اليه بالشيء بعد الشيء كالقوت .

وأبو العميثل كان كاتب ابن طاهر وشاعره . وكان كاتب أبيه من قبله . ومما يروى فى بديهته أنه قبل يوماً كف عبد الله ابن طاهر فاستخشن شاربه فقال : شـــوك القنفذ لا يؤلم كف الأسد .

ولـكن أبا العميثل بهت لبديهة أبى تمام وحدة ذكائه . وكان موقفه منه كموقف الفيلسوف الـكندى . ولـكنه عاد فأتى معتذراً الى أبى تمام لعبد الله بن طاهر ، ثم دخل إلى عبد الله فقال: أيها الأمير، أتتهاون بمثل أبى تمام وتجفوه فوالله لو لم يكن له من النباهة فى قدره والاحسان فى شعره والشائع من ذكره ما له ، لـكان الخوف من شره والتوقى لذمه يجب به على مثلك رعايته، ومراقبته ، فكيف له بنزوعه اليك من الوطن، وفراقه للسكن، عاقداً أمله معملا اليك ركابه ، متعباً فيك فكره وجسمه ،وفى ذلك ما يلزمك من قضاء حقه حتى ينصرف راضياً .

فقال عبـد الله لقد نبهت فأحسنت ، وشفعت فلطفت ، وعاتبت فأوجعت ، ولك ولأبى تمام العتبى . ودعاه فنادمه يومه

وأمر له بألفى دينار وما يحمل من الظهر وخلع عليه خلعة تامة من ثيابه

واتصل أبو تمام بالحسن بن وهب وأخيه سليمان ، وكانا من أعيان عصرهما أدباً وجاهاً . وفى آل وهب يقول :

كل شعب كنتم به آل وهب ... فهو شعبى وشعب كل أديب

ومن قصيدة له يصف غلاما أهداه اليه الحسن بن وهب

لدن البنان له لسـان أعجم ... خرس معانيه ووجه معرب

يرنو فيثلم فى القلوب بطرفه ... ويعن للنظر الحرون فيصحب

قد صرف الرانون حمرة خده ... وأظنها بالريق منه ستقطب

ومدح أحمد بن أبى دؤاد وله فيه الاعتذارات الجميلة ومنها قوله فى حساده :

نزعوا بسهم قطيعة يهفو به ... ريش العقوق فكان غير سديد

وإذا أراد الله نشر فضـيلة ... طويت أتاح لها لسان حسود

لولا اشتعال النار فيما جاورت ... ماكان يعرف طيب عرف العود

لولا التخوف للعواقب لم تزل ... للحاسد النعمى على المحسود

وهذه الأبيات من خير ما قاله أبو تمام ، بل هى من أجود ما قيل فى الحسد بوجه عام . وقد جمعت بين قوة التعبير وجمال

الفكرة فى قالب من النظم البليغ ، وتبدو فيها الحكمة البليغة والمنطق الحكيم . وهما من النواحى التى اشتهر بها أبو تمام .

واتصل الشاعر بأبى دلف العجلى : أحد قواد المعتصم . ومدحه بالقصائد البليغة . ونال منه العطايا الكثيرة ووصف بعض المعارك التى خاضها ومن خير ما قاله فى ذلك قصيدته التى يقول فى مطلعها :

أما الرسوم فقد أذكرن ما سلفا ... فلا تكفن عن شانيك أو يكفا

وكان أبو دلف قد خرج فى جيش لجب تحت إمرة الأفشين لمحاربة بابك الخرمى . وكانت قد امتدت فتنته وعظم خطره . وكان بابك على مذهب المزدكية الذى يدعو إلى إباحة اللذات واستباحة الحريات وزاد عليه القتل والنهب فقتله الأفشين فى الموقعة التى يصفها أبو تمام فى هذه القصيدة . ومن قوله فيها :

إن الخليفة والأفشين قد علما ... من اشتفى لهما من بابك وشفى

ومنها فى وصف إقدام جيشه وهزيمة بابك

ذمّرت جمع الهدى فانقض منصلتا

وكان فى حلقات الرعب قد رسفا

ومر بابك مر العيش منجذبا ... محلوليا دمه المعسول لو رُشفا

حيران يحسب سجف النقع من دهش
طودا يحاذر أن ينقض أو جرفا

ظل القنا يستقى من صفه مهجا إما ثمادا[1] وإما ثرة خسفا
من مشرق دمه في وجهه بطل وواهل دمه للرعب قد نزفا
فذاك قد سقيت منه القنا جرعا وذاك قد شربت منه القنا نطفا

ومن جيد شعره فى أبى دلف بائيته التى يقول فى مطلعها :

على مثلها من أربع وملاعب
أذيلت مصونات الدموع السواكب

ومنها يصف شعره فى الممدوح

إليك أرحنا عازب الشعر بعدما تمهل فى روض المعانى العجائب
غرائب لاقت فى فنائك أنسها من المجد فهى الآن غير غرائب

ولو كان يفنى الشعر أفناه ماقرت
حياضك منه فى العصور الذواهب
ولـكنه صوب العقول إذا انجلت
سحائب منـه أعقبت بسحائب

(١) الثماد : الماء القليل . والثره العين الكثيرة الماء والخسف الكثيرة الماء أيضا .

وقيل إن أبا دلف لما أنشد القصيدة المتقدمة أجاز أبا تمام بخمسين الف درهم . وقال والله إنها لدون شعرك . ثم قال والله ما مثل هـذا فى الحسن إلا ما رثيت به محمد بن حميد الطوسى . فقال أبو تمام وأى ذلك أراد الأمير ؟ قال القصيدة التى أولها « كذا فليجل الخطب وليفدح الأمر » وددت والله أنها لك فىّ . فقال أفدى الأمير بنفسى وأهلى وأكون المقدم قبله فقال أبو دلف : إنه لم يمت من رثى بهذا الشعر .

وابن حميد الطوسى : من قواد المأمون . وكان قد أرسله فى جيش لمحاربة بابك الذي سبق ذكره ، فهزمه جيش بابك هو ومن معه . وانقضوا عليه فقتلوه . وكان لقتله صـدى أليم فى نفس المأمون . ويقال إن أبا تمام حين بلغ إليه النعى غمس طرف ردائه فى مداد وضرب به كتفيه وصدره وأنشد قصيدته المشهورة فيه ومن جيد ما فيها قوله فى وصف قتال ابن حميد فى هـــذه المعركة ، وشجاعته وإبلائه .

فتى مات بين الطعن والضرب ميتة
تقوم مقـام النصر إن فاته النصر

وما مات حتى مات مضرب سيفه

من الضرب واعتلت عليه القنا السمر

وقد كان فوت الموت سهلا فرده

إليه الحفاظ المر والخلق الوعر

ونفس تعاف العار حتى كأنه

هو الكفر يوم الروع أو دونه الكفر

فأثبت فى مستنقع الموت رجله

وقال لها من تحت إخمصك الحشر

ومن قصائد أبى تمام التى تروى فى كل عصر قصيدته التى مدح بها المعتصم بالله ووصف فيها فتح عموريه . ومطلعها :

السيف أصدق إنباء من الكتب   فى حده الحد بين الجد واللعب

ومنها فى الرد على تخرصات الرهبان والمنجمين :

أين الرواية بل أين النجوم وما

صاغوه من زخرف فيها ومن كذب

تخرصا وأحاديثا ملفقة   ليست بنبع إذا عدت ولا غرب

لو بينت قط أمرا قبل موقعه   لم يخف ما حل بالأوثان والصلب

ومنها يخاطب المعتصم ويصف نار الموقعة :

لقد تركت أمير المؤمنين بهـــا
للنار يوما ذليل الصخر والخشب

غادرت فيها بهيم الليل وهو ضحى
يقله وسطها صبح من اللهب

حتى كأن جلابيب الضحى رغبت
عن لونها أو كأن الشمس لم تغب

ضوء من النار والظلماء عاكفة
وظلمة من دخان فى ضحى شحب [1]

لم تطلع الشمس فيه يوم ذاك على
بان بأهل ولم تغرب على عزب

ومنها فى وصف سبايا الحرب :

كم نيل تحت سناها من سنى قمر
وتحت عارضها من عارض شنب

كم كان فى قطع أسباب الرقاب بها
الى المخدرة العذراء من سبب

---

(١) شحب بمعنى متغير

كم أحرزت قضب الهندى مصلتة

تهتز من قضب تهتز فى كثب

بيض اذا انتضيت من حجبها رجعت

أحق بالبيض أبداناً من الحجب

ولما مدح أبو تمام الوزير محمد بن عبد الملك الزيات بقصيدته التى يقول فى مطلعها :

ديمة سمحة القياد سكوبُ مستغيث بها الثرى المكروب

قال له ابن الزيات وكان من فحول البلاغة وصيارفة الكلام : يا أبا تمام انك لتحلى شعرك من جواهر لفظك وبديع معانيك ما يزيد حسناً على بهى الجواهر فى أجياد الكواعب، ومايدخر شىء من جزيل المكافأة إلا ويصغر عن شعرك فى الموازاه

قيل وكان بحضرته فيلسوف فقال : إن هـذا الفتى يموت شاباً . فقيل له ومن أين حكمت عليه بذلك ؟ فقال رأيت فيه من الحدة والذكاء والفطنة مع لطافة الحس وجودة الخاطر ، ما علمنى أن النفس الروحانية تأكل جسمه كما يأكل السيف المهند غمده.

وتبدأ القصيدة بوصف بديع للمطر ، يرتفع فيه الشاعر إلى آفاق عالية يجارى فيها السحاب الهتون ويرمقه ويناجيه مناجاة

الأوداء الأصفياء ، بل إن نفسه لتتوثب وتتحفز لملاقاته في عليائه ، وتتخيل الأرض وهي تكاد تجاريه في هذا التحفز والشوق ، والخلق وهم يشاركونه شغفه وولوعه ومنها قوله .

لو سمت بقعة لأعظام نعمى لسعى نحوها المكان الجديب
لذ شؤبوبها وطاب فلو تسـ ـطيع قامت فعانقتها القلوب
فهي ماء يجري وماء يليه وعزال تنشا وأخرى تذوب
كشف الروض رأسه واستسر المحل منها كما استسر المريب
فاذا الرى بعد محل وجرجا ن لديها يبرين أو ملحوب

وقد شارك أبا تمام البحتري في مدح ابن الزيات ولهما فيه القصائد البليغة .

ولد أبو تمام حبيب بن أوس الطائي بقرية جاسم من أعمال دمشق سنة تسعين ومائة لأب من الروم اسمه تدوس واعتنق الاسلام حين بلغ سن الرشد وكان أسمر اللون طويل القامة في حديثه تمتمة يسيرة . ويقال إنه المقصود بقول الشاعر .

يا نبيّ الله في الشعر ويا عيسى بن مريم
أنت من أشعر خلق الله ما لم تتكلم

ولا شك أن من يفحم الفلاسفة والشعراء في حضرتهم

ويبهرهم بحديثه فى المواقف التى بيناها فيما تقدم وفى كثير غيرها لاتغض من حديثه تمتمه يسيرة كالتى وصف بها أبو تمام .

والشطر الأول من هذين البيتين لا يقال فيمن كانت له مكانته فى الشعر وعلو قدمه ، فانهم إنما يعنون بكلمة نبي الله فى الشعر من لا يجيد قوله : إشارة إلى قوله تعالى : وما هو بقول شاعر . ويقولون : فلان من بيت النبوة ، إذا أرادوا أن يسلبوه موهبة الشعر . وهذا ما يسمونه الهجاء فى معرض المدح .

ومن مؤلفات أبى تمام غير ديوانه : كتاب الحماسة ، ويقال إنه كتبه في همذان أثناء رحلته لعبد الله بن طاهر والى خراسان . وقد أقام بها ينتظر زوال الثلج ، وكان قد نزل عند رجل لديه خزانة كتب فيها دواوين العرب وغيرها ، فتفرغ لها وطالعها وصنف منها خمسة كتب منها كتاب الحماسة . ويذكر أن أبا تمام كان يحفظ من شعر العرب أربعة عشر ألف أرجوزة ، غير المقاطيع والقصائد . وسواء أصح هذا الكلام أو لم يصح فهو يدل على اشتهار أبى تمام بالرواية . ولكن الذى قد نشك فيه أو نجد فيه بعض الغلو هو أن أبا تمام قد صنف كتاب الحماسة أو

ديوان الحماسة كما نسميه وأربعة كتب أخرى فى ضيافته القصيرة عند ذلك الهمذانى ، الذى أقام لديه ريثما يزول الثلج من طريقه وهو متأهب للسفر . فان اختيار مثل هـذه الكتب من بين كلام العرب على النحو الذى نراه ، يحتاج إلى وقت غير ذلك الوقت الذى يقضيه المسافر العجل فى ضيافة إنسان . . وقد كان أبو تمام على اتصال بذوى المكانة والصدارة من الخلفاء والأمراء والوزراء فى بغداد والموصل فهو فى غنية ، ولديه منادح للاطلاع والاختيار فضلا عن روايته التى لا يلحقه فيها غيره ، وقد ألف كتاب الاختيار من الشعراء ، وفحول الشعراء : ويجمع طائفة كبيرة من شعراء الجاهلية والمخضرمين والاسلاميين وله كتاب الوحشيات ونقائض جرير والأخطل

كان أبو تمام شاعراً بليغاً لم يتقدمه شاعر فى حياته . وكان يذهب مذهب البديعيين فى توشية الشعر وترصيعه وقدأ كثر فى شعره من لغة المجاز والتورية . وان كان إنما يذهب في هذا عن فطرة وطبيعة . ويظهر ذلك فى بعض أحاديثه ورسائله إلى من يرتفع بينه وبينهم التكلف .

ومن إشاراته الطريفة أنه أرسل يستدعى أحد أصدقائه

إلى الشراب وكان يسكر من قدحين فكتب اليه :

إن رأيت أن تنام عندنا الليلة . فافعل . فكنى عن السكر بالنوم وقد غلب وصف أبى تمام بالحكمة لما ورد فى شعره من الأمثلة والحكم حتى قيل المتنبي وأبو تمام حكيمان والشاعر البحترى . ونحن نضع قصائده فى وصف المعارك الحربية ومراثيه ووصفه للربيع والسحاب والمطر فى المكان الأول . ونرى أن الحكمة تأتى عرضاً فى شعره . فهو شاعر من أخمصه إلى قة رأسه .

وقد توفى أبو تمام بالموصل سنة إحدى وثلاثين ومائتين وبنى عليه أحد بنى حميد الطوسى قبة خارج باب الميدان على حافة الخندق ومات بعد موته دعبل الخزاعى الشاعر الهجاء وكان صديق البحترى فقال فى رثائهما .

قد زاد فى كلفى وأوقد لوعتى ... مثوى حبيب يوم مات ودعبل

أخوىّ لا تزل السماء مخيلة ... تغشاكما بسماء مزن مسبل

جدث على الأهواز يبعد دونه ... مسرى النعىّ ورمة بالموصل

* * *

ويقترن باسم أبى تمام اسم أبى عبادة البحترى :

قال كان أول أمرى فى الشعر ونباهتى أنى صرت إلى أبى تمام

وهو بحمص فعرضت عليه شعرى ، وكان الشعراء يعرضون أشعارهم فأقبل على وترك سائر من حضر ، فلما تفرقوا قال : أنت أشعر من أنشدنى ، فكيف حالك ، فشكوت اليه خلة . فكتب إلى أهل معرة النعمان وشهد لى بالحذق فى الشعر وقال امتدحهم . فصرت اليهم فأكرمونى بكتابه ، ووظفوا لى أربعة آلاف درهم ، فكانت أول مال أصبته .

وروى عنه أنه قال : أول ما رأيت أبا تمام ، أنى دخلت على أبى سعيد محمد بن يوسف فأنشدته القصيدة التى أولها ، « أأفاق صب من هوى فأفيقا » وعدة أبياتها ثلاثة وسبعون بيتا فسر أبو سعيد ، وقال أحسنت والله يا فتى ، وكان فى مجلسه رجل نبيل رفيع المجلس فوق كل من حضر . فأقبل علىّ وقال : يا فتى أما تستحى ؟ هذا شعرى تنتحله وتنشده بحضرتى ! ! فقال أبو سعيد: أحقا تقول ؟ قال نعم ، وانما علقه منى فسبقنى به اليك . ثم اندفع فأنشد القصيدة ، حتى شككنى علم الله فى نفسى وبقيت متحيراً . فأقبل على أبو سعيد . وقال يا فتى لقد كان فى قرابتك منا وودك لنا ما يغنيك عن هذا فجعلت أحلف بكل محرجة من الايمان، أن الشعر ما سبقنى اليه أحد ولا سمعته ، ولا انتحلته ، فلم ينفع

ذلك شيئا . وأطرق أبو سعيد وقطع بي حتى تمنيت أني سخت في الأرض فقمت منكسر البال أجر رجلي . فخرجت . فما هو إلا أن بلغت باب الدار ، حتى خرج الغلمان إلى فردوني . فأقبل على الرجل وقال : الشعر لك يا بنيّ ، والله ما قلته قط ولا سمعت به الا منك ، ولكني ظننت أنك تهاونت بموضعي ، فأقدمت على الانشاد بحضرتي من غير معرفة كانت بيننا ، تريد بذلك مضاهاتي ومكاثرتي ، حتى عرفني الأمير نسبك وموضعك ولوددت ألا تلد طائية الا مثلك . وجعل أبو سعيد يضحك . فدعاني أبو تمام فضمني اليه وعانقني ، وأقبل يقرظني ولزمته بعد ذلك وأخذت عنه ، واقتديت به

وحدث قال أنشدت أبا تمام شيئا من شعري فتمثل ببيت أوس بن حجر :

اذا مقرم منا ذرا حد نابه تخمط منا ناب آخر مقرم

ثم قال لي : نعيت والله الى نفسي ، فقلت : أعيذك بالله من هذا القول فقال : إن عمري لن يطول ، وقد نشأ في طي مثلك ، أما علمت أن خالد بن صفوان رأى شبيب وهو بين رهط يتكلم . فقال : يابني لقد نعى إلى نفسي إحسانك في كلامك . لأنا أهل

بيت ما نشأ فينا خطيب قط الا مات من قبله . فقلت بل يبقيك الله ، ويجعلنى فداك . ومات أبو تمام بعد سنة .

وقد علا كعب البحترى وسما قدره فى الشعر ، ولكنه كان على الدوام يحفظ لأبى تمام حقه فى التقدم ، ويراه صاحباً وإماماً ، وكان يفضله على نفسه . ويروى انه أنشد شعراً لنفسه كان أبو تمام قال مثله ، فقيل له : أنت أشعر من أبى تمام فى هذا الشعر . فقال كلا . والله إن أبا تمام للرئيس والأستاذ . والله ما أكلت الخبز إلا به . قال المبرد وكان حاضراً : لله درك فأنك تأبى إلا شرفاً من جميع جوانبك

وبقى البحترى على إخلاصه لأبى تمام إلى أن مات وانفرد بزعامة الشعر من بعده . وعاش الى أن أدرك الدولة فى أوج كمالها. ومدح الخلفاء والأمراء وكبار الرجال . وكان يستطرد فى مدائحه الى وصف المعارك الحربية والأحوال السياسية ، وقد ظهر فى شعره وصف الطبيعة والقصور ونواحى الترف المتعددة الألوان . يزجيها فى رقة وعذوبة تأخذ بمجامع القلوب .

فالبحترى وان كان مصوراً بارعاً، يحمل الأصباغ والفرجون، إلا أنه فى بديع نظمه ورقيق لفظه ، يحمل قيثار الموسيقى الشجية

الانغام ، وقد انتظم شعره كثيراً من حوادث العصر الذى عاش فيه وممن مدحهم البحترى من الخلفاء : المتوكل والمعتز والمعتمد والمهتدى ، والمستعين ، ومن رجال الدولة : ابن الزيات وابن المدبر ومالك بن طوق والفتح بن خاقان ، واسماعيل بن نوبخت . والشاه بن ميكال وآل سهل ، وآل طاهر وكثير غيرهم .

وكان يتقصى المال أين كان ، ويذهب في طلبه إلى كل مكان. حتى كثر ماله . وتعددت ضياعه ، ولم يصده الاثراء عن طلب المال ، حتى أخريات حياته . وقد أخذ عليه أنه يكثر من مدح الأعاجم ويفضلهم عن العرب فى بعض الأحيان . ومن قوله فى ذلك من قصيدة يمدح بها إذ كوتكين وقومه من بنى ساسان :

متى لم يزك فى العرب ارتيادى   حططت إلى رباع الأعجمينا
نوالى معشراً قربوا الينا   ونرى من تطول آخرينا
بنو أعمامنا الدانون منا   وواهبة النوال بنو أبينا

وليس عجيبا أن يمتدح البحترى الأعاجم وقد كان لهم أكبر شأن فى الدولة . وقد اختتم سينيته بهذه الأبيات التى هى عندنا بمثابة الرد على من يأخذ عليه هذا المسلك :

ذاك عندي وليست الدار داري باقتراب منها ولا الجنس جنسي
غير نعمى لأهلها عند أهلي غرسوا من ذكائها خير غرس
أيدوا ملكنا وشـــدوا قواه بكماة تحت السنور دعس
وأعانوا على كتائب أريا ط بطعن على النحور ودعس
وأراني من بعد أكلف بالاشـــراف طراً من كل سنخ وجنس

وقد وصف البحتري فوق حبه للمال بالبخل والكزازة . وكان يلزم ابراهيم بن المدبر في كل سنة أن يسقط أكثر خراجه أو يؤديه عنه فأراد شراء ضيعة واستماح ابراهيم فلامه لكثرة ضياعه وقال يكفيك ضياعك . فقد كثرت وعظمت ، فأنشد قصيدته التي يقول في مطلعها :

سفاها تمادى لومها ولجاجها واكثارها مما رأت وضجاجها

إلى أن بلغ قوله :

ومازالت العيس المراسيل تنبرى فيقضى لدى آل المدبر حاجها

فأمر له بإتمام ماله . ومن رقيق قوله في هذه القصيدة مخاطبا ابن المدبر :

فلا أمل إلا عليك طريقه
ولا رفقة إلا اليك معاجها

يد لك عندى قد أبر ضياؤها

على الشمس حتى كاد يخبو سراجها

هى الراح تمت فى صفاء ورقة

فلم يبق المصبوح إلا مزاجها

فان تلحق النعمى بنعمى فأنه

يزين اللآلى فى النظام ازدواجها

ومنها

وكنت اذا مارست عندك حاجة

على نكد الأيام هان علاجها

ولمْ لا أغالى بالضياع وقد دنا

علىّ مداها واستقام اعوجاجها

اذا كان لى تربيعها واغتلالها

وكان عليك كل عام خراجها

وكان ابن المدبر يقرب البحترى اليه ، ويغدق عليه المال الكثير والثناء الوفير . قال الصولى : ذكر يوما ابراهيم بن المدبر البحترى ، فقال ما رأيت أتم طبعا منه ، ولا أحضر خاطراً ، مدحنى حين تخلصت من الأسر وذكر الضربة التي فى وجهى ،

وتخلص ومدح المأسور . وهذا حمى ما رعاه قبله أحد .

وكان صاحب الزنج قد أسر ابن المدبر بالبصرة . وكان قد ضرب فى وجهه ضربة بقى أثرها حتى مات . وقد تخلص من الأسر سنة ٢٥٧ . وفى ذلك يقول البحترى وهو ما أشار اليه ابن المدبر .

ومبينة شهر المنازل وسمها
والخيل تكبو فى العجاج الكابى
كانت بوجهك دون عرضك إذ رأوا
أن الوجوه تصان بالاحساب
ولئن أسرت فما الأسار على امرىء
نصر الاسار على القرار بعاب
نام المضلل عن سراك ولم يخف
عين الرقيب وقسوة البواب
ما راعهم إلا امتراقك مصلتا
عن مثل برد الارقم المنساب

ومما يروى فى بخل البحترى هذه القصة التى يرويها أبو مسلم محمد بن الاصبهانى الكاتب . قال دخلت على البحترى يوما فحبسنى

عنده ودعا بطعام له ودعانى اليه فامتنعت من أكله . وعنده شيخ شامى لا أعرفه فدعاه الى الطعام فتقدم وأكل معه أكلا عنيفاً فغاظه ذلك ، والتفت الىّ فقال لى أتعرف هـذا الشيخ فقلت لا . قال : هذا شيخ من بنى هجيم الذين يقول فيهم الشاعر :

وبنى هجيم قبيلة ملعونة ... حصى اللحا متشابهو الألوان
لو يسمعون بأكلة أو شربة ... بعمان أصبح جمعهم بعمان

إلا أنه مع ذلك كان يعف عن المال اذا جاءه من غير طريقه المألوف أو رأى أن صاحبه يبذله مكرهاً .

حدث أبو الفضل عباس بن أحمد بن ثوابة قال قدم البحترى النيل على أحمد بن الاسكافى مادحا له فلم يثبه ثوابا يرضاه ، بعد ان طالت مدته فهجاه بقصيدته التى يقول فيها :

ما كسبنا من أحمد بن على ... ومن النيل غير حمى النيل

وهجاه بقصيدة أخرى أولها : قصر النيل فاسمعوها عجابه. فجمع الى هجائه أياه هجاء أبى ثوابه . وبلغ ذلك أبى فبعث اليه بألف درهم وثياب ودابة بسرجها ولجامها . فرد ذلك اليه وقال قد أسلفتكم اساءة لا يجوز معها قبول رفدكم . فكتب اليه أبى :

أما الاساءة فمغفورة ، وأما المعذرة فمشكورة ، والحسنات

يذهبن السيئات ، وما يأسوا جراحك مثل يدك ، وقد رددت اليك ما رددته على وأضعفته ، فان تلافيت ما فرط منك أثبنا وشكرنا ، وان لم تفعل احتملنا وصـــبرنا . فقبل ما بعث به وكتب اليه ، كـلامك والله أحسن من شعري ، وقد أسلفتني ما أخجلني وحملتني ما أثقلني ، وسيأتيك ثنائي ثم غدا اليه بقصيدة أولها : ضلال لها ما ذا أرادت من الصد . وقال فيه بعد ذلك : برق أضاء العقيق من ضرمه . وقال فيـه أيضاً : وان دعا داعي الصبا فأجابه . قال ولم يزل أبي يصله بعـد ذلك ويتابع بره لديه حتى افترقا .

وروى صاحب الأغاني : أنه كان بحلب شخص يقال له طاهر بن محمد الهاشمي مات أبوه وخلف له مقدار مائة ألف دينار أنفقها على الشعراء والزوار فقصده البحتري من العراق فلما وصل الى حلب قيل له إنه قد قعد فى بيته لديون ركبته فاغتم البحتري لذلك غما شديداً ، وبعث المدحة اليه مع بعض مواليه فلما وصلته ووقف عليها بكى ودعا بغلام له وقال له بع داري . فقال له أتبيع دارك وتبقى على رؤوس الناس. فقال لا بد من بيعها . فباعها بثلاثمائة دينار فأخذ صرة وربط فيها مائة دينار

أنفذها الى البحترى وكتب اليه معها رقعة فيها هذه الأبيات

لو يكون الحباء حسب الذى أنـــت لدينا به محل وأهل
لحثوت اللجين والدر واليا قوت حثوا وكان ذاك يقل
والأديب الأريب يسمح بالعذ ر اذا قصر الصديق المقل

فلما وصلت الرقعة الى البحترى رد الدنانير وكتب اليه :

بأبى أنت والله للبر أهـل والمساعى بعد وسعيك قبل
والنوال القليل يكثر ان شا ء مرجيك والـكثير يقل
غير أنى رددت برك إذ كا ن ربا منك والربا لا يحل
واذا ما جزيت شعراً بشعر قضى الحق والدنانير فضل

فلما عادت الدنانير اليه حل الصرة وضم اليها خمسين ديناراً أخرى وحلف أنه لا يردها فلما وصلت الى البحترى أنشأ يقول:

شكرتك أن الشكر للعبد نعمة
ومن يشكر المعروف فالله زائده
لكل زمان واحـد يقتدى به
وهذا زمان أنت لا شك واحده

وكانت خلافة المتوكل هى العصر الذهبى للبحترى . فقد أحبه المتوكل وأعجب بشعره وقربه اليه وأغدق عليه من ماله

وبره الشيء الكثير . وتفتحت أبواب الشعر أمامه فى قصور الخلافة فوصف تلك القصور وما فيها من العظمة والسمو وما احتوت من البساتين والغياض والمياه وفنون البزخ والترف فى عصر يعد بحق من أزهر عصور الدولة الاسلامية ، وأغناها بالأموال والرجال . وقد وصف البحترى زمن المتوكل بقوله :

فكأنما الدنيا هنالك روضة
راحت جوانبها تراح وتوبل
أوماترى حسن الزمان ومابدا
وأعاد فى أيامه المتوكل
أشرقن حتى كاد يقتبس الدجى
ورطبن حتى كاد يجرى الجندل

وهى أبيات تكاد تفيض رقة وعذوبة . وقال فى وصف الجعفرى من قصور المتوكل :

ملك تبوأ خير دار أنشئت ... فى خير مبدى للأنام ومحضر
مخضرة والغيث ليس بساكب ... ومضيئة والليل ليس بمقمر

ومنها :

فرفعت بنيانا كأن مناره ... أعلام رضوى أو شواهق صيبر

ملأت جوانبه الفضاء وعانقت   شرفاته قطع السحاب الممطر
وتسير دجلة تحته ففناؤه   من لجة غمر وروض أخضر
شجر تلاعبه الرياح فتنثنى   أعطافه فى سائح متفجر

وهى أبيات صافية منغومة تدل على صفاء الطبيعة وابتهاج النفس الشاعرة ، بما ترى وتلمس فى تلك القصور ، بل الفراديس الغناء .

وقد وصف البحتري بركة الجعفرى بما لم يصل اليه شاعر من سمو المعانى ودقة التصوير . مع رقة اللفظ وجمال الاسلوب . ويقول فيها :

يا من رأى البركة الحسناء رؤيتها
والآنسات اذا لاحت مغانيها
بحسبها أنها فى فضل رتبتها
تعد واحدة والبحر ثانيها
ما بال دجلة كالغيرى تنافسها
فى الحسن طورا وأطوارا تباهيها

ووصف الصبيح والمليح من قصور المتوكل بشعر لا يقل بهاء وروعة عن شعره المتقدم ، ولازم المتوكل فى أسفاره كما

لازمه فى مقامه . وقد أتيح له فى تلك الأسفار التى صحب المتوكل فيها أن يصف الكثير من صور الطبيعة المختلفة الألوان

ومن قوله فى وصف دخول المتوكل العراق بعد عودته من دمشق

وما زال توخيد المهارى وطيها
بنا البعد من حزن الفلا وسهوله
إلى أن بدا صحن العراق وكشفت
مجوف الدجى عن مائه ونخيله
يظل الحمام الورق فى جنباته
يذكرنا أحبابنا بهديله
فأحببت محباً رؤية من حبيبه
وسرت خليلا أوبة من خليله
بنعمى أمير المؤمنين وفضله
غدا العيش غضاً بعد طول ذبوله

ومن ظريف ما يروى ما رواه جحظة عن على بن يحيى المنجم قال :

اجتازت جارية بالمتوكل معها كوز ماء وهى أحسن من

القمر . فقال لها : ما اسمك قالت برهان . قال ولمن هذا الماء . قالت لستى قبيحة قال صبيه فى حلق فشربه عن آخره . ثم قال للبحترى . قل فى هذا شيئا فقال :

ما شربة من رحيق كأسها ذهب

جاءت بها الحور من جنات رضوان

يوماً بأطيب من ماء بلا عطش

شربته عبثا من كف برهان

وكان يروق للمتوكل أن يداعب البحترى ويعابثه حتى ينال منه ، ثم يعود فيترضاه ويغدق عليه من الأموال هو وأمراؤه ما تتفتح له نفسه وينسيه الغضب . وان بلغ منه كل مبلغ . حدث أحمد بن جعفر جحظة قال حدثنى أبو العنبس الصميرى . قال كنت عند المتوكل والبحترى ينشد :

عن أى ثغر تبتسم   وبأى طرف تحتكم

حتى بلغ إلى قوله :

قل للخليفة جعفر الـ   ـمتوكل بن المعتصم
المجتدى للمجتدى   والمنعم بن المنتقم
إسلم لدين محمـــد   فاذا سلمت فقد سلم

قال وكان البحترى من أبغض الناس إنشاداً يتشادق ويتزاور في مشيه مرة جانبا ومرة القهقرى . ويهز رأسه مرة ومنكبيه أخرى ويشير بكلمة ويقف عند كل بيت.ويقول أحسنت والله. ثم يقبل على المستمعين فيقول ما لكم لا تقولون أحسنت ! ! هذا والله ما لا يحسن أحد أن يقول مثله !

فضجر المتوكل من ذلك وأقبل عليّ وقال : أما تسمع ياصيمرى ما يقول فقلت بلى يا سيدى فمرنى فيه بما أحببت فقال بحياتى أهجه على هذا الروى . انشد فيه . فقلت تأمر ابن حمدون أن يكتب ما أقول فدعا بدواة وقرطاس وحضرنى على البديهة أن قلت :

أدخلت رأسك في الرحم ... وعلمت أنك تنهزم
يا بحترى حذار ويحـ ... ـك من قضاقضة ضغم
فلقد أسلت بوالد ... يك من الهجاسيل العرم
فبأى عرض تعتصم ... وبهتكه جف القلم
والله حلفة صادق ... وبقبر أحمد والحرم
لأصيرنك شهرة ... بين المسيل الى العلم
حيث الطلول بذى سلم ... حيث الاراكة والخيم
يا ابن الثقيلة والثقيـ ... ـل على قلوب ذوى النعم

وعلى الصغير مع الكبير من الموالى والحشم
فى أى سلخ ترتطم وبأى كف تلتطم

* * *

قال فغضب وخرج يعدو وجعلت أصيح به :

أدخلت رأسك فى الرحم وعلمت أنك تنهزم

والمتوكل يضحك ويصفق حتى غاب عن عينه . قال أحمد ابن زياد فحدثنى أبى قال جاءنى البحترى فقال لى يا أبا خالد أنت عشيرتى وابن عمى وصديقى وقد رأيت ما جرى على أفتاذن لى أن أخرج الى منبج (بلد البحترى) بغير إذن فقد ضاع العلم وهلك الأدب . فقلت لا تفعل من هذا شيئا ، فان الملوك تمزح بأعظم مما جرى ومضيت معه الى الفتح (وزير المتوكل) فشكا اليه ذلك . فقال له نحواً من قولى ووصله وخلع عليه فسكن الى ذلك .

ولكن هذا العهد الزاهر الذى نعم به البحترى فى ظل المتوكل لم يكن ليدوم . إذ أن الدهر كان للمتوكل بالمرصاد . وكانت الحياة تخبىء له وراء ذلك النعيم الذى رفل فى بحبوحته ردحا من الزمن حادثا نكراً لم يكن ليخطر لأحد على بال فى ذلك

العصر الذى بسط فيه المتوكل رواقه على كل ما فيه من عز ورفاهية . وانتفع به كل من كان يمت اليه بصلة .

وكأنما الزمان الذى عزف على قيثار البحترى قصائده البديعة فى مباهج الحياة ونعيمها في ظل المتوكل . أراد أن يعزف على نفس القيثار أناشيد الألم الممض والحزن الأليم .

قال البحترى بعد حديث سابق . . . وسكر المتوكل سكراً شديداً وكان من عادته أنه اذا تمايل عند سكره أن يقيمه الخدم الذين على رأسه ، قال فبينما نحن كذلك ومضى نحو ثلاث ساعات من الليل إذ أقبل باغر [1] ومعه عشر نفر من الجنود الأتراك . وهم متلثمون والسيوف بأيديهم تبرق فى ضوء تلك الشموع . فهجموا علينا وأقبلوا نحو المتوكل حتى صعد باغر وآخر معه من الأتراك على السرير فصاح بهم الفتح : ويلكم ! مولاكم . فلما رآهم الغلمان ومن كان حاضرا من الجلساء والندماء تطايروا على وجوههم . فلم يبق أحد فى المجلس غير الفتح وهو يحاربهم ويمانعهم ، قال البحترى : فسمعت صيحة المتوكل وقد

---

(١) فتى من الأتراك كان قد اتخذه المتوكل لحراسته ودفع اليه بسيف ثمين ليقف به على رأسه .

ضربه باغر بالسيف الذى كان المتوكل دفعه اليه على جانبه الأيمن فقد إلى خاصرته ، ثم ثناه على جانبه الأيسر ففعل مثل ذلك ، وأقبل الفتح يمانعهم عنه ، فبجعه واحد منهم بالسيف الذى كان معه فى بطنه فأخرجه من متنه ، وهو صابر لا يتنحى ولا يزول، قال البحترى : فما رأيت أحدا كان أقوى نفسا ولا أكرم منه ،ثم طرح نفسه على المتوكل ، فماتا معاً ، فلفا في البساط الذى قتلا فيه ، وطرحا ناحية . فلم يزالا على حالتهما فى ليلتهما وعامة نهارهما حتى استقرت الخلافة للمنتصر فأمر بهما فدفنا جميعا.

وقد كان بغا الصغير توحش من المتوكل . فكان المنتصر يجتذب قلوب الأتراك ، وكان أوتامش غلام الواثق مع المنتصر، فكان المتوكل يبغضه لذلك ، وكان أوتامش يجتذب قلوب الاتراك إلى المنتصر . وعبيد الله بن خاقان الوزير والفتح ابن خاقان منحرفين عن المنتصر مائلين الى المعتز ، وكانا قدأوغرا قلب المتوكل على المنتصر . فكان المنتصر لا يبعد أحد من الأتراك إلا اجتذبه . فاستمال قلوب الاتراك وكثيرا من الفراعنة والأشرسية الى أن كان من الأمر ما كان .

ولم يكن لير هذا الحادث حتى سجله البحتري بقصيدة من

أروع شعره . وصف فيها قصر الجعفرى وعهوده وتغير الزمان له بعد ساكنه ووحشته ووصف انسلال القتلة اليه خفية ونزالتهم وحقارتهم وصور اغتيال المتوكل فى صورة قوية رزينة . وهدد القتلة وتوعدهم وحمل على محرضيهم فى شجاعة وجرأة . ويقول فى مطلع هذه القصيدة :

محل على القاطول أخلق دائره
وعادت صروف الدهر جيشا تغاوره
كأن الصبا توفى نذوراً اذا انبرت
تراوحه أذيالهـــا وتباكره

ومنها :

تغير حسن الجعفرى وأنسه
وقوض بادى الجعفرى وحاضره
تحمل عنـه ساكنوه فجاءة
فعادت سواء دوره ومقابره

ومنها :

تخفى له مغتاله تحت غرة
وأولى لمن يغتاله لو يجاهره

فما قتلت عنه المنايا جنوده
ولا دافعت أملاكه وذخائره
تعرض نصل السيف من دون (فتحه)
وغيب عنه فى خراسان (طاهره)

ومنها:

ومغتصب للقتل لم يخش رهطه
ولم تحتشم أسبابه وأواصره
صريع تقاضاه السيوف حشاشة
يجود بها والموت حمر أظافره
أدافع عنه باليدين ولم يكن
ليثنى الأعادى أعزل الليل حاسره
ولو كان سيفى ساعة القتل فى يدى
درى الفاتك العجلان كيف أساوره
حرام علىّ الراح بعدك أو أرى
دماً بدم يجرى على الأرض مائره

ومنها:

أكان ولى العهد أضمر غدره فمن عجب أن ولى العهد غادره

فلاملىّ الباقى تراث الذى مضى ولا حملت ذاك الدعاء منابره

وقد كان لهذا الحادث أثر شديد فى نفس البحترى وفى حياته وشعره فلما حجب عنه قصر الجعفرى باحتجاب صاحبه وانصرفت عنـه ضروب اللهو والمرح ، وانصرف عنها . حملته قدماه الى إيوان كسرى ، فمشى يطلع اليه ويتهافت ، وهو يحمل فى نفسه تلك الذكريات الأليمة والصور الدارسة فى عالم الحس ومكانها قائم فى صميم قلبه وإنسان عينه . وفى هذا الايوان نظم سينيته التى تعد خير ما أنتجته قريحة البحترى ويقول فى مطلعها :

صنت نفسى عما يدنس نفسى وترفعت عن جدى كل جبس
وتماسكت حين زعزعنى الد هر التماسا منه لتعسى ونكسى

ومنها ويذكر السبب الذى دعاه إلى زيارة الايوان :

حضرت رحلى الهموم فوجه ت الى أبيض المدائن عنسى
أتسلى عن الحظوظ وآسى لمحل من آل ساسان درس
ذكرتنيهم الخطوب التوالى ولقد تذكر الخطوب وتنسى

وأتبع هذه الأبيات بوصفه البليغ للايوان وتصوير ماضيه وحاضره وكأنما كان يذكر قصر الجعفرى وهو يقول فى وصف الايوان .

يتظنى من الـكآبة أن يبدو لعيني مصبح أو ممسى
مزعجاًبالفراق عن أنس إلف عز أو مرهقا بتطليق عرس
عكست حظه الليالي وبات المشترى فيه وهو كوكب نحس

إن ما في هذه القصيدة من الصور والاحساسات ليرفعها الى أسمى مراتب الشعر الذى عرف في سائر اللغات .

ولـكى نتبين وجوه النظر فى شعر الشاعرين يجب أن نرجع الى نشأة النقد عند العرب وسنتناول ذلك بالبحث فى الفصل القادم .

والبحترى هو أبو عبادة الوليد بن عبيد الله البحترى الطائى ولد بمنبج سنة ٢٠٦ هجرية . ونشأ فى البادية بين قبائل طىء وغيرها . لذلك غلبت عليه فصاحة العرب وكانت وفاته سنة ٢٨٤

وقد عاش بعد وفاة أبى تمام زمنا طويلا وحضر عصوراً لم يحضرها أبو تمـــام ، وشاهد ما لم يشاهده من صنوف الترف والبزخ . ورأى ما لم يره ووصف ما لم يصف .

وكان الشاعران الشغل الشاغل لنقاد العرب . ومن تلاهم حتى العصر الذى نحن فيه . مما سنعرض له فى موضعه من هذا الـكتاب .

نشأة النقد عند العرب

لم يكن للعرب مذاهب فى النقد يستطيع الباحث أن يتتبعها ويشرحها واحدا فواحدا ، ويقارنها بغيرها مما أنتجته القرائح فى العصور الأخيرة .

فقد ظل النقد عندهم مقصورا على اللفظ البديع والقالب البليغ وحسن السبك والانسجام والمبالغة فى التعبير عن المعنى المقصود ، حتى كان يفضل البيت من الشعر أو القصيدة ، وتعطى حقها من المدح والثناء بقدر نصيبها من ذلك .

خذ مثلا كتاب ابن رشيق ، العمدة فى نقد الشعر وصناعته ، وهو أكبر كتاب فى النقد ، قال فيه ابن خلدون ، إنه أوعى وأجمع كتاب فى النقد لم يساوه بعده ولا قبله كتاب آخر ، وكتاب الصناعتين ، لابن هلال العسكرى . وكتاب قدامة ابن جعفر فى نقد الشعر ، وكتاب الوساطة بين المتنبى وخصومه ، وكتاب الموازنة للآمدى . فانك ترى هذه الكتب التى تعد أخص المؤلفات بالنقد وأشهرها ، لا تكاد تتعدى البحث فى اللفظ والقالب وأنماط من البلاغة والبيان على نحو ما أسلفنا . ولقد

ظل النقد العربى لا يتناوله التطور ولا يعتريه التغيير فى مختلف العصور . ولم يفكر العرب فى تحويل مناحى النقد يوما من الأيام ؛ بل كانوا أشد محافظة وتمسكا بالبلاغة اللفظية بعد ظهور الاسلام وفى العصور المتأخرة مما كانوا قبل ذلك ، لاحتياجهم إليها لفهم مراد القرآن الكريم ، ومعرفة مراميه . حتى صارت البلاغة أداة من أدوات الدين ، ونوعا من أنواع الفقه .

روى الجاحظ عن محمد بن على بن عبد الله بن عباس أنه قال كفاك من علم الأدب أن تروى الشاهد والمثل .

ومن ثم كان الانصراف إلى شعراء الجاهلية ، والتعصب لهم والوقوف عند ما يقولون . مما حد الأفكار وعقد القرائح ووقف تيار البلاغة ، ومنع حركة التجديد إلى حد كبير .

وكان عمرو بن العلاء لا يروى شعرا للمحدثين . قال الأصمعى : جلست معه ثمانى سنين ، فما سمعته يحتج ببيت إسلامى . وسئل عن المولدين فقال : ما كان من قبيح فهو من عندهم وما كان من حسن فهو من عند غيرهم . وكذلك غير ابن العلاء كثيرون . ولا يزال إلى الآن من ينحو هذا النحو .

فالنقد هو المنارة التى تتجه نحوها سفينة التفكير فى أى عصر من العصور ، بل هو سكانها الذى يوجهها حيث يشاء ، ويعدل بها عما لا يشاء ، ويرسى بها إلى الشاطىء الذى يريده لها .

فتى كان النقد عميقا والتفكير فيه قويا . وآراء الناقدين حية تتحرك وتنمو على سنة التطور . شأن كل حى فى الوجود ، فانها دافعة بالآداب إلى معارج التقدم ، ومراقى الفلاح . وعلى النقيض من ذلك كلما كان الأمر على العكس .

كان من الطبعى أن يتسم النقد العربى بهذا الميسم ، ويتكون الذوق فيه على هـذا النمط . فالعرب بطبيعة بلادهم الجافة ومعيشتهم البدوية فى تلك الجزيرة المترامية الأطراف . قوم رحل يتنقلون من مكان إلى آخر ، فى الصحراء ذات الطول والعرض . ينتجعون الكلأ ويشن بعضهم على بعض الغارات . فلا فخر إلا للقوة والذود عن الأعراض ، وحماية الجار ، وإيواء الضعيف . وغير ذلك مما هو قمين بتلك البداوة .

فتلك صفات خلعتها عليهم البيئة وطبعتهم بطابعها فكان من حق النقد أن يأخذ بنصيبه منها . بل كان من حقه أن يتسم بها تماما . فالتفاخر بالقوة وشن الغارات . والذود عن الأعراض ،

يقتضى المبالغة في الأقوال ، والتفنن في العبارات الضخام ، التى من شأنها أن توقع التأثير فى النفوس .

ولا غرابة إذن اذا كانت تلك الطبيعة البدائية . والفطرة البسيطة تستهويها الألفاظ وتستثيرها العبارات . فهي تسير مع العاطفة أينما سارت ، وتنقاد للوجدان حيث كان . وتعرض عن التعمق والاستقصاء . ولا لوم فى ذلك ولا تثريب . فتلك السنة التى لا مفر منها والنتيجة المقررة فى مثل أحوالهم .

لا يسع الباحث فى تاريخ العرب إلا أن يتفق معنا على أن لهم مزاجاً معينا ، وصفات معلومة ، خلعتها عليهم طبيعة بلادهم كما أوضحنا . . . فتلك أمة يغلب عليها التأثر والانفعال ويظهر فيها الطرب والحماسة بأجلى معانيهما . تستميلها الكلمات وتستثيرها العبارات . وتستفزها البلاغة ، بما لم يسمع بمثله عند غيرها من الأمم . ولما كان هذا شأنهم ، كان من السهل أن نرى النقد ينساب فى هذا التيار من التأثر والانفعال والطرب السريع . فلا يكاد يقرع البيت أذن بعضهم حتى يصيح ، هذا خير ما قالته العرب ، أو هذا أغزل بيت قالوه أو أمدح بيت

أو أهجاه . أو هذا ما لا يستطيع أن يقوله أحد . ويسأل المطلع أو الحجة من أشعر الناس ؟ فسرعان ما يجيب السائل ببيت من الشعر قد رفع صاحبه وجعله أشـعر الناس . فأى بيت يضع صاحبه في هذه المرتبة التى تسمو به إلى هذه المـكانة الرفيعة ؟ أى بيت من الشعر ، يريح صاحبه من عنـاء الشهرة والسعى المتواصل فى سبيل العظمة والخلود ؟

إنه التأثر هو الذى يملى مثل هذه الأحكام . وإذا ذكرنا الطبيعة العربية واتخذنا منها قاعدة ، وجب علينا أن ننظر إلى الموضوع من كافة نواحيه لنصل بذلك إلى حقيقة ثابتة يمكن الاعتماد عليها فى فهم تلك الطبيعة فهما لا يعتوره النقص ولا يتسرب اليه التثريب .

قلنا إن لعاطفة الحماسة والتأثر المكانة الأولى فى تكوين الخلق العربى الذى يصطبغ بصبغته الأدب ثم النقد . وليس أقطع فى الدلالة على هذه الطبيعة وانبثاثها فى أخلاق العرب القدامى وعاداتهم وأعمالهم بل وكل شىء لهم من تأثير الكلام فى تلك النفوس .

كان الشاعر ينزل فى القبيلة فيمدحها بقصيدة أو بيت من

الشعر فيكون نصيبها أن يعلو قدرها وترتفع مكانتها ، وتنفرد بالمجد من غير ما سبب إلا أن هذا الشاعر ألم بها في يوم من الأيام فأحسن القوم ضيافته وأكرموا مثواه ! وهذا امرؤ القيس ينزل بتيم فيضيفونه ويكرمون وفادته فيقول فيهم :

أقر حشا امرىء القيس بن حجر ٠ بنو تيم مصابيح الظلام

فتسمو هذه القبيلة ، وترتفع مكانتها ، ويصبح هذا الاسم علما عليها : مصابيح الظلام .

وقد يعترض بامرىء القيس لسمو مكانته ومقامه من الملك . فنسوق طائفة مقنعة في هذا الباب لا يبقى معها سبيل الى الشك في أن ذلك إنما كان ناشئاً من تلك السجية المتجمسة وذلك الطبع المتأثر

فهذه قبيلة أنف الناقة كانت تفرق من هذا الاسم وتعاب به ، حتى جاء أحدهم وهو بغيض بن لؤى بن شماس بن جعفر أنف الناقة فنقل الحطيئة من ضيافة الزبرقان بن بدر إلى ضيافته وأحسن اليه فقال فيهم أبياته المشهورة :

سيرى أمام فان الأكثرين حصا

والأكرمين اذا ما ينسبون أبا

قوم هم الأنف والأذناب غيرهم

ومن يساوى بأنف الناقة الذنبا

فصاروا يتطاولون بهذا النسب ويمدون به أصواتهم فى جهارة وكانت هذه الأبيات سبباً فى رفعتهم . وهؤلاء بنو نمير قد وضعهم بيت جرير وكسر نسبهم ، وكانوا جمرة من جمرات العرب كما يروى اذا سئل أحدهم : ممن الرجل ؟ فخم لفظه ومد صوته وقال : من بنى نمير .

وهذا الأعشى يمدح المحلق وهو رجل فقير خامل الذكر ، ذو بنات فما يكاد يتم قصيدته حتى ينسل الناس الى الرجل مهنئين والأشراف من كل قبيلة يتسابقون اليه جريا يخطبون بناته . فلا تمسى منهن واحدة إلا فى عصمة رجل أفضل من أبيها ألف ضعف والقصيدة مشهورة يقول فى مطلعها :

أرقت وما هـــذا السهاد المؤرق

وما بى من سقم وما بى معشق

ومنها:

نفى الذم عن آل المحلق جفنة

كجابية الشيخ العراقي تفهق

ترى القوم فيها شارعين وبينهم
مع القوم ولدان من النسل دردق
لعمرى لقد لاحت عيون كثيرة
إلى ضوء نار باليفاع تحرق
تشب لمقرورين يصطليانها
وبات على النار الندى والمحلق

وأكثر من ذلك فى إبراز تلك الطبيعة أبيات البسوس .

لعمرى لو أصبحت فى دار منقذ
لما ضيم سعد وهو جار لأبياتى
ولكننى أصبحت في دار غربة
متى يعد فيها الذئب يعد على شاتى
فيا سعد لا تغرر بنفسك وارتحل
فانك فى قوم عن الجار أموات
ودونك أذوادى فخذها وواتنى
براحلة لا يغدرون ببنياتى

وتسمى عند العرب بأبيات الفناء ،وقد قامت بسببها حرب

بسوس المعروفة . وغير ذلك كثير مما لو أردنا حصره ضاقت به صفحات هذا الكتاب .

هكذا كانت العاطفة العربية شديدة التأثر بالقول كثيرة الاعتداد به . ولا يستطيع الباحث إلا أن يسلم بذلك .

وأسوق على سبيل التفكهة فى هذا الباب ذكر حمام برقة وذلك أن امرأة كان لها حمام يدعى حمام برقة وكان لا يرده أحد ، ولا يعطف عليه إنسان . وفى جواره حمام آخر يسمى حمام منجاب ، قد انفرد بالزائرين من كل مكان . فاتفقت صاحبة حمام برقة هذا مع أحد الشعراء فكتب لها هذا البيت على بابه :

حمام برقة لا حمام منجاب   حمام برقة سخن واسع الباب

فانتقل الناس إلى حمام برقة حتى كاد يضيق بهم .

واذا تبين لنا ذلك المزاج فى خلق العرب لا يمكننا إلا أن نحكم بأنه كان للعواطف محل كبير عندهم . فتلك الطبيعة الحادة تلك النفوس المتأثرة لغير ما شىء إلا ما يقوله شاعر من بيت أو بيتين أو أبيات فلا تلبث أن تزلزل الأرض أو تكفهر السماء ، وينحط قوم ويرتفع آخرون . تلك الطبيعة ولا شك طبيعة الحماسة والحمية ، طبيعة التأثر والانفعال اللذين ينطبع

بهما ذلك الأدب ، ويسير على قصدهما النقد فى مختلف العصور.

فاذا كانت للنقد أبواب عند العرب ، فانها لا تقصد إلا من هذا الطريق . واذا كان له قصد ، فانه لا يمهد له إلا على هـذا الأساس . ولا بدع فتلك سنتهم وعليها وضع الحجر الأساسى للنقد

فالعربى يفتتن بالالفاظ ، ويطرب للعبارات ، وتستميله المبالغات حتى صح أن يقول بعضهم : خير الشعر أكذبه. وصح أن يمدح الشعر أو يذم على هذه الطريقة من الفهم .وها هو بيت حسان بن ثابت :

لنا الجفنات الغر يلمعن بالضحى

وأسيافنا يقطرن من نجدة دما

أنظر كيف تناوله النقد العربى قديما وأى عيب استخرجه منه سوى بعده عن المبالغة. فالجفنات عيب كبير فى البيت وكان أولى للشاعر أن يقول الجفان . ولماذا ؟ لأن الجفان أكثر من الجفنات وكذلك يلمعن . كان الأصح أن يقال فى البيت يبرقن، ويقطرن يجرين أو يسيلن . فأنت ترى أن النقد لم ينظر الى البيت إلا من حيث عدم المبالغة ، ومن حيث أن الشاعر لم يسر على طريقة الغلو .

ولقد كان من العرب من يقول بخلاف ذلك ، إلا أن الذكاء لا يقهر الطبيعة ، وهو وان تغلب عليها فى بعض المواقف ؛ فلابد أن ينكص على عقبيه لتظهر وتتجلى بكل معانيها . وليس أبلغ فى الدلالة على ذلك من هؤلاء الذين يقولون بمذهب الصدق وعدم الغلو منهم فهذا حسان بن ثابت تراه يقول .

وإن أحسن بيت أنت قائله بيت يقال اذا أنشدته صدقا

ثم لا تلبث الطبيعة أن تتغلب عليه فى كثير من أقواله وأقربها قوله :

لساني وسيفى صارمان كلاهما

ويبلغ ما لا يبلغ السيف مذودى

وهو فى الحقيقة من أبعد الناس عن حمل السيوف كما يقولون ولم يشهد مع رسول الله مشهداً واحداً . وكذلك كان النقاد ممّن يقولون بالصدق وعدم الغلو . لا تلبث أن ترى بعضهم يكذب نفسه بنفسه فيما يفضله ويختاره ويتمثل به . ومهما يكن من الأمر فهؤلاء وإن لم يخرجوا الفكرة إلى حيز العمل فلهم فضل التفكير فيها .

لقد كان العرب فيما رأيناه لا يعرفون القصيدة ، إلا من

حيث أنها أبيات منسقة منسجمة على قافية ووزن واحد، لكل بيت معنى مستقل بذاته لا علاقه له بما يليه إلا من حيث الوضع. فاذا صرفت نظرك عن ذلك . فانك لا تجد الا أبياتاً متفرقة ، مرصوصاً بعضها تلو بعض . ومن ثم انثال النقد فى هذا التيار . فكان الناقد العربى يلم بالقصيدة بيتاً بيتاً ، ويحلل ما يشاء منها على حدته من حيث اللفظ والقالب ومطابقة المعنى لمقتضى الحال. أما القصيدة أو المعنى الذى يعدو البيت أو البيتين فهذا ما لم ينظر اليه . ولو تثنى لبعض الشعراء ما أعاره أى التفات ولم يخل الأدب العربى من قصائد أو أبيات على هذا النحو ، لم يتناولها النقد كقصائد أو أبيات لها معنى مطرد متسلسل لا يفهم إلا اذا اجتمعت أجزاؤه . نعم لم يتنبه النقد الى شيء من ذلك بل كان الناقد يأتى الى القصيدة من هذا الطراز ، فيخرج منها أبياتاً منفردة يمدحها ، أو يهجنها على قدر نصيبها من الاتساق والسير مع الأساليب العربية البليغة ومراعاة الظرف والمقتضى ، وصحة المقابلة والتقسيم والتفسير والمبالغة والتكافؤ الى آخر ما هنالك مما لا علاقة له بالقصيدة من حيث هى .

هذه نشأة النقد وسننه التى درج عليها . وقد توالت العصور

ولم يعترها أى تغيير . حتى لقد صار الشعر لا ينظر اليـه فى الا كثر الا باعتباره محض أساليب وقوالب قديمه يتتبع الشاعر خطى أربابها وينسج على منوالهم . وليس له الا فضل المحا كاه فاذا شذ عن ذلك أو نزع الى شيء من التجديد عد نزوعه خروجا على الشعر وقواعده كما قالوا فى أبى نواس والمتنبي وابن الرومى والمعرى وأبى تمام وأمثالهم ممن أرادوا التحرر من ربقة القديم ولم ترض طبائعهم الوقوف عند حد المحاكاه . ويرجع هذا الى فهم العرب للشعر والمعانى الشعرية . فهم يفهمون الشعر وينقدونه كذلك على نحو خاص لا تكاد ترى له علاقة بما هو معروف عند غيرهم . فكلمة الشعر تدل على معنى اصطلحوا عليه . فلا يفهم منها شيء آخر . ومن ثم كان كل خروج على هذا المعنى خروجا على الشعر العربي . وليس من حق كائن أن يتصرف فى مفهومه. فكل انحراف أو تعديل يخرجه عن حيزه الذى وضعه العرب يعتبر خروجا على معناه .

ومن ثم لم يعترف أكثرهم لغير العرب بالشعر . ولم يعنوا بأشعار اليونان وغيرهم . أو مجاراتها والأخذ عنها . وليس فى ذلك من بأس . اذ أن الشعر عندهم شيء غير ذلك الشعر . وانما يرجع

كما يقول ابن خلدون . الى صورة ذهنية للتراكيب المنظمة كلية باعتبار انطباقها على تركيب خاص . وتلك الصورة ينتزعها الذهن من أعيان التراكيب وأشخاصها ، ويصيرها فى الخيال ، كالقالب أو المنوال ، ثم ينتقى للتراكيب الصحيح عند العرب باعتبار الاعراب والبيان . فيرصها فيه رصا كما يفعل البناء فى القالب ، أو النساج فى المنوال . حتى يتسع للقالب بحصول التراكيب الوافية بمقصود الكلام . ويقع على الصورة الصحيحة باعتبار ملكة اللسان العربى فيه . فان لكل فن من الكلام أساليب تختص به . وتوجد فيه على أنحاء مختلفة . . . الى آخر ما هنالك . وإننا نعلل ذلك بما بيناه من إرخاص المعانى . وفهمها ذلك الفهم . ثم اعتقادهم إن المتقدمين سبقوهم إلى كل شىء فلم يبق إلا تقليدهم . وتقليدهم فى ماذا ؟ فى الأساليب وطرق القول لأن المعانى لاقيمة لها ويوجد منها عند الجاهل مثل ما يوجد عند العالم كما أسلفنا . ولا يفهم من هذا أنه لم يكن هنالك أناس يفهمون تطور الشعر والتجديد فيه بحسب الزمان والمكان . فقد كانت هناك معركة تدور رحاها حول القديم والجديد كما هو حاصل الآن ، ومما يروى فى هذا المعنى قول أبى تمام .

فلو كان يفنى الشعر أفناه ما قرت

حياضك منه في العصور الذواهب

ولكنه صوب العقول إذا انجلت

سحائب منه أعقبت بسحاب

وقوله في قصيدة :

يقول من تقرع أسماعه　　كم ترك الأول للآخر

رداً على قولهم ما ترك الأول للآخر من شيء .

وكذلك قول أبي نواس :

صفة الطلول بلاغة القدم　　فاجعل صفاتك لابنة الكرم

لا تخدعن عن التي جعلت　　سقم الصحيح وصحة السقم

تصف الطلول على السماع بها　　أفذو العيان كأنت في الحكم

واذا وصفت الشيء متبعا　　لم تخل من جهل ومن عقم

وقد كان بعض النقاد والعلماء بالشعر يقولون بالزمان والمكان والتجديد الا أن فهمهم للشعر لم يعد الاستعارة والتشبيه والمثل السائر وما يجرى مجرى ذلك . فهم ليسوا بأحسن حظا من غيرهم في هذا المقام . ولقد ظل النقد مقصورا على البيت دون القصيدة الى وقتنا هذا وعند الكثيرين .

قلت إن العرب شغفوا بالشعر وأولوه المكان الأول من اهتمامهم . ولم تكن كثرة الشعراء لديهم لتنقص من قيمته لديهم . بل إنك لترى الأمر على النقيض من ذلك . فقد كانت كثرة الشعراء سبباً فى تفشيه بينهم . وانشغال الجميع به ملوكا وسوقة . علماء وجهلاء أشرافا وصعاليك . بل لقد كان من اللصوص وقطاع الطرق من يشتغل به ويقوله .

ولا جرم فى أمة كالأمة العربية مع ما اشتهر به أهلها من الفصاحة أن يكونوا كلهم شعراء ما دام الشعر هو نظم ما يتكلمون به . والذي يهمنا هنا أن نعرف نصيب النقد فى أمة عظيمة جل أهلها شعراء .

لقد كان شغف العرب بنقد الشعر يعادل حبهم له . فأنت لا تكاد ترى مجلسا للشعر يخلو منه . . كانوا يختلفون فى البيت فيرحل بعضهم الى حجة أو ثقة فينيخون ببابه ، فيسألونه عنه ثم يعودون . بل لقد كان للشعراء أسواق مشهورة ينشد فيها الشعر وينقد . فترى القوم فيها يتبارون ويتلاحون ثم يعودون ومنهم الظافر والمخذول . وكانت ترفع قبة لنابغة بنى ذبيان فى سوق عكاظ يجلس فيها ويمر به الشعراء معهم قصائدهم ينقدها

واحدة فواحدة ، ويبدي رأيه فيها . والنابغة يعد من أكبر نقاد الشعر فى الجاهلية كما هو من أكبر شعرائها . ومن رأيه فيه الكذب والغلو . وينسبون اليه النقد المعروف لبيت حسان : لنا الجفنات الغر يلمعن فى الضحى . وينسبه بعضهم الى الخنساء وهو الى النابغة أقرب .

وكان من البدهى في مثل هذه الحال أن يهتم النقاد بترتيب الشعراء ومعرفة درجاتهم وأيهم أشعر العرب . فقد كان هذا من أكبر همهم . وهم وان كانوا يختلفون فى هذا كثيراً الا أن أكثرهم على تقديم امرىء القيس . وأخبر عيسى بن يزيد عن ابن عباس رضى الله عنهما قال .قال لى عمر انشدنى لأشعر شعرائكم قلت من هو يا أمير المؤمنين . قال زهير وكان كذلك . قال كان لا يعاظل بين الكلام ولا يتبع حوشيه ولا يمدح الرجل الا بما فيه . ويقول بعضهم بتفضيل الأعشى وبعضهم بتفضيل غيره . على أنك اذا أردت أن تحصر آراءهم فى ذلك أعياك الأمر وعرفت أن لكل شاعر منهم من يفضله ويقدمه على الجميع ومن لطيف ما يروى أن مروان بن حفص سمع يوما جمعا من الشعراء.فكان يخرج أحدهم فيقول هذا أشعر الناس ، ويسمع الآخر فيقول

هذا أشعر الناس . الى أن كثر ذلك منه فقال الناس أشعر الناس

وجاء النقاد فيما بعـد فرتبوا الشعراء الى طبقات وتكلموا عن شعراء كل طبقة شاعراً شاعراً ، وما يمتاز به كل واحدمنهم وألفوا فى ذلك الكتب والرسالات نخص بالذكر منها كتاب طبقات الشعراء . ويعرضهم فى عشر طبقات ، يبتدئون بأصحاب المعلقات ثم يتكلم بطريقة موجزة عن كل منهم . وهذا فرع من النقد لم يتقدم بأكثر من ذكر القليل المجمل عن الشاعر فى عبارات مسجوعة . ينقصها الوزن لتكون كألفية ابن مالك . ولم يعرف العرب فى هـذا الباب تفصيل حياة الشاعر ومزاجه والوسط الذى يعيش فيـه . والحوادث التى اصطدمت بحياته . وتأثير كل ذلك فى نفسه وبيان الصلة بين الشاعر وشعره ، وهم على ماهو مشهور عنهم من حفظ الأنساب والتواريخ . وهذا نوع من النقد يبين العلة والمعلول فى الشعر . بطريقة منطقية دقيقة يقصد بها فهم الشاعر وإنصافه .

نعم لم يعرف العرب الأقدمون هذا النقد وانك لترى أحدهم ينقد الشعر بما فى نفسه . ويقيده بما يهواه وليس له شأن بالموضوع فى ذاته وفى ذات صاحبه . وكثيراً ماعابوا شعراً لامرىء القيس

وابى نواس وغيره لموضوعه وليس لجودته أو رداءته . فمحب النساء والخمر يعاف الزهـد والحكم ، ومحبهما يعاف القول فى النساء والخمر . وهذه طريقة فى النقد تجعل كل شعر يمدح أو يذم وفق أمزجة النقاد وأخلاقهم . والأمزجة تتعدد والأخلاق تختلف فيصبح كل شعر حسنا وقبيحا فى آن واحد .

وقد خالف ذلك بعض النقاد منهم قدامة بن جعفر قال :

وليست فحاشة المعنى فى نفسه مما يزيل جودة الشعر فيه كما لا يعيب جودة النجارة عيب فى الخشب مثلا كرداءته فى ذاته

ومما اتجه إليه النقاد مراعاة مواقف الشاعر وذوقه فيهـا وموافقة كلامه المقتضى والمناسـبات . وكان للعرب بذلك اهتمام . ولهم فيه بديهة وذوق . ويروى عن عبد الملك بن مروان أنه دخل عليه جرير ، ينشده قصيدته التى يقول فى مطلعها :

أتصحو أم فؤادك غير صاح

فقال عبد الملك بل فؤادك يا ابن الفاعلة

وعابوا على المتنبى قوله لكافور أول لقائه :

كفى بك داء أن ترى الموت شافيا وحسب المنايا أن يكن أمانيا

فى مطلع قصيدته المعروفة ، وان كان الخطاب موجهـا

لنفسه لا إلى كافور ومما يؤاخذون به أبا نواس ، ويؤنبونه عليه أن بعض بنى برمك بنى داراً استفرغ فيها مجهوده وانتقل اليها فصنع أبو نواس فى ذلك الحين قصيدة يمدحه فيها ويقول فى أولها :

أربع البلى إن الخشوع لباد   عليك وإنى لم أخنك ودادى

وختمها بقوله :

سلام على الدنيا إذا ما فقدتم   بنى برمك من رائحين وغاد

فتطير منها البرمكى . واشمأز حتى كلح وظهرت الوجمة عليه . ثم قال نعيت إلينا أنفسنا يا أبا نواس . والكلام فى ذلك كثير والشواهد عديدة

ولم يخل بعض النقاد من التعنت فى نقد الشعر ومهاجمة الشعراء كما أرادوا . ولهم فى الاحتيال على ذلك فنون . ويقع ذلك عادة مع المولدين . أما المتقدمون فقد كانوا يحتالون لهم عادة لكل مايقع منهم ومن أبعد الوسائل . ويرجع ذلك إلى تعظيمهم وتنزيههم عن كل نقص ، ووضعهم مكان المثل الأعلى من نظرهم . خلافا للمولدين الذين لايريدون أن يعترفوا لهم بأحسان . ومن ظريف ما يروى عن اسحق بن ابراهيم الموصلى انه قال أنشدت الأصمعى :

هل إلى نظرة إليك سبيل فيبل الصدا ويشفى الغليل
إن ما قل منك يكثر عندى وكثير ممن تحب القليل

فقال والله هذا الديباج الخسرواني ... وانه لمن تنشدني ؟ فقلت إنهما لليلتهما فقال لاجرم والله أن أثر التكلف فيهما ظاهر

وللشعر بعد عيوب ومحاسن جمعها المولدون ورتبوها بنظام معجب فى ذاته بالغ غاية الدقة فى موضوعه من حيث نظرتهم للشعر . ومن عيوبه غير ما قدمنا عيوب يختص بعضها بالوزن والقافية . قال يونس وهى أربعة : الزحاف والايطاء والاكفاء والأقواء ثم عيوب أخرى تختص بالشعر جاء قدامه على بعضها فى كتابه نقد الشعر منها ماقوامه الأسلوب . كالحشو والتذنيب والتعقيب والتعطيل ومنها ما يخص المعانى وهى فساد المقابلات والاستحالة والتناقض وفساد التفسير .

أما السرقة فقد كانت من أكبر ما يرمى به الشعر عندهم اللهم إلا إذا كان الشاعر يتناول المعنى لغيره فيهذبه ويزيد عليه أو يضعـــه فى قالب أرق وأبلغ . فأن ذلك مغتفر له . لا بل يصير اليه المعنى دون صاحبه

وقد اختلفوا فى سرقة النثر فبعضهم يقول انهـا سرقة

والبعض يقول بخلاف ذلك والغالبية يعدون ماورد فى شعر المتنبى وأبى العتاهية من حكم اليونان سرقة عيبوها عليهما . أما ابن رشيق فى هذا فيؤيد المذهب الثانى ولا يرى شيئا فى ذلك وله رسالة فى سرقة الشعر بين فيها ذلك فى مكانه منها

هذه عيوب الشعر عند العرب أجملناها ليكون لدى القارىء فكرة عن النقد من كل ناحية . أما محاسن الشعر عندهم فعكس ماذكرناه وقد حصر قدامه مايتعلق منها بالمعانى فى سبعة أشياء قال وهذه الأشياء إذا اجتمعت فى الشعر كان فى غاية الجودة وهى كما ذكرها : صحة المقابلة ، صحة التقسيم صحة التفسير والتتميم ،المبالغة، التكافؤ ، الالتفات . فأنت ترى أنها جميعا لاعلاقة لها بالمعانى المعروفة الآن إلا من حيث الصناعة

وإذا كانت هذه نشأة النقد عند العرب فأننا لا نعدو الحقيقة إذا قلنا إن شاعرينا كانا يتقدمان النقد ، ويسبقانه أشواطا بعيدة . ويتبين ذلك من كلامنا فى رأى المتقدمين فى شعر البحترى وأبى تمام ، فى الفصل التالى .

رأى المتقدمين

فى شعر البحترى وأبى تمام

بينا فيما تقدم نشأة النقد عندالعرب وطبيعة الناقدين عندهم. ويظهر مما أسلفنا أن طبيعة التأثر السريع كانت الأساس الأول للنقد ومن ثم اتجه الاعجاب الى اللفظ الفصيح والصناعة الحسنة والمبالغة فى التشبيهات ونبا ذوقهم عن شعر الروية . والناقد العربي يصد عما لا يفهمه لأول وهلة أو يحتاج فى تفهمه الى شيء من التبصر . وقل أن ينظر إلى قصيدة تتعدى الفكرة فيها البيتين أو الثلاثة . وقد بينا السبب فى ذلك وعزوناه الى الطبيعة العربية فى نشأتها الأولى .

وليس معنى هذا أن العرب كانوا لا يفهمون الشعر . فهذا ما لا نقصده ولا نرمى اليه، ولكنهم كانوا يفهمونه على طريقتهم التى تتفق وطبيعتهم من ناحية وتلائم حياتهم من ناحية أخرى .

وقد كان البحترى وأبو تمام مادة واسعة لنقاد الشعر، وصيارفة

الكلام أجيالا متعاقبة . فظهور هذين الشاعرين فى عصر واحد، واتصال أحدهما بالآخر وأخذه عنه ثم بروزه وتفوقه وارتفاع نجمه . جعل الكلام عن الشاعرين حديث كل متحدث عن الشعر والشعراء وقد وصف ابن الأثير أبا تمام والبحترى قال :

أما أبو تمام : فانه رب معان وصيقل أذهان ، وقد شهد له بكل معنى مبتكر . لم يمش فيه على أثر . ولقد مارست من الشعر كل أول وأخير . ولم أقل ما أقوله إلا بعد التنقير . فمن حفظ شعر الرجل وكشف عن غامضه ؛ وراض فكره برائضه ؛ أطاعته أعنة الكلام . وكان قوله فى البلاغة ما قالت حذام . فخذ منى فى ذلك قولة حكيم . وتعلم فان فوق كل ذى علم عليم .

وأما البحترى : فانه أحسن فى سبك اللفظ على المعنى ، ولقد حاز طرفى الرقة والجزالة على الاطلاق ، فبينا يكون فى شظف نجد ، إذ يتشبث بريف العراق . وسئل المتنبى عنه وعن أبى تمام وعن نفسه فقال: أنا وأبو تمام حكيمان والشاعر البحترى. ولعمرى إنه أنصف فى حكمه ، وأعرب بقوله هذا عن متانة علمه ، فان البحترى أتى فى شعره بالمعنى المقدود من الصخرة الصماء ، فى اللفظ المصوغ من سلافة الماء ، فأدرك بذلك بعد المرام،

مع قربه إلى الافهام . وما أقول إلا أنه أتى في معانيه بالنوادر الغاليه ، ورقى فى ديباجة لفظه إلى الدرجة العاليه .

وهذا كلام مجمل بسيط يوضح بعض المعالم البدائية فى تفهم الشاعرين . ولا يكفى لفهم أبى تمام أنه رب معان وصيقل أذهان . ولا يفهم البحترى بأنه أتى فى شعره بالمعنى المقدود من الصخرة الصماء . فى اللفظ المصوغ من سلافة الماء . وقد أغرب فى تصوير المعانى هذا التصوير الجاف . وإن كنت لا أجد فى شعر أبى عباده معنى يصح أن يقال فيه هذا الوصف . ولعله يقصد أن يقول ما قاله البحترى فى محمد بن عبد الملك الزيات وعبر عنه أحسن تعبير حين قال .

ومعـان لو فصلتها القوافى هجنت شعر جرول ولبيد
حزن مستعمل الكلام اختيارا وتجنبن ظلمة التعقيـد
وركبن اللفظ القريب فأدركـــن به غاية المراد البعيد

واختصر أبو العلاء المعرى ديوان أبي تمام وشرحه وسماه ، ذكرى حبيب ، وديوان البحترى وسماه ، عبث الوليد ، وديوان المتنبي وسماه معجز أحمد وتكلم على غريب أشعارهم ومعانيها ومآخذهم من غيرهم . وما أخذ عليهم ، وتولى الانتصار لهم

والنقد فى بعض المواضع عليهم . والتوجيه فى بعض الأماكن بخطئهم ، وليس بين أيدينا من هذه الكتب الثلاثة غير كتاب واحد هو كتاب عبث الوليد وقد اختلفوا فى تسمية الكتاب بهذا الاسم فقال البعض إنه يرمى إلى قول البحترى .

إن الهموم طوينني ونشرنني عبث الوليد بجانب القرطاس

وبعضهم قال إن المعرى قد اشتهر فى شعره بمعابثة البحتري ومن ذلك قوله فى سقط الزند :

ذم الوليد ولم أذمم جواركم فقال ماأنصفت بغداد حوشيتا
فأن لقيت وليدا والنوى قذف يوم القيامة لم أعدمه تبكيتا

مشيراً إلى قول البحترى :

ماأنصفت بغداد حين توحشت بنزيلها وهى المحل الآنس

ومنه قوله :

وقال الوليد النبع ليس بمثمر وأخطأ سرب الوحش من ثمر النبع

مشيرا إلى قول البحترى :

وعيرتنى سجال العدم جاهلة والنبع عريان ما فى عوده ثمر

وليس فى هذا الكتاب شىء من جيد البحترى حتى أن المؤلف قد اختار بيتين اثنين من سينيته فى وصف ايوان كسري

مما يدل على أن المعرى قد اقتصر، فى كتابه على غريب البحترى وسماه « عبث الوليد »

ومما جاء فى هذا الكتاب : فى القصيدة التى أولها :

زعم الغراب منبىء الأنباء

وفيها يقول « أى البحترى » :

فلعلنى ألقى الردى فيريحنى   عما قليل من جوى البرحاء

قال المعرى فى كلامهم لعلّ وبها جاء القرآن . وربما جاء لعلنى وهذا البيت ينشد على وجهين :

ذرينى جواداً مات هزلا لعلنى   أرى ما ترين أو بخيلا مخلدا

ومنهم من ينشد : لأنى وهو بمعنى لعلنى

وأطال فى تلك الرسوم بكاكِ

قال المعري كانت الكاف فى تلك مفتوحة وقد حكت وكسرت والكسر غلط فى هذا الموضع . لأنها إنما تكسر إذا كان الخطاب لمؤنث . وقد دل مابعد هذا البيت وقبله على أنه يخاطب مذكرا وقد ادعى بعضهم أن كاف (ذلك) تعرب في الضرورات وينشد

وإنما الهالك والتالك   مدفع ضاقت به المسالكِ

كيف يكون النوك إلا ذلكِ

وهذا لا يقبل ممن حكاه إذا كان تسكين القافية لا مؤنة فيه ولا اضطرار ؛ ولو صح أن كاف ذلك ترفع لجاز أن تخفض كاف تلك فى بيت أبى عبادة .

وقال : فى البيت الآتي من سينية البحترى :

مغلق بابه على جبل القبق   الى دارتى خلاط ومكس

القبق موضع معروف : وهى كلمة معربة بالألف واللام . ونظيرها فى كلام العرب قليل إذ كانوا يستثقلون أن تكون الفاء واللام من جنس واحد والعين من جنس آخر والأوسط ساكن ويستخفون أن تكون العين واللام متجانسين فيكثر فى كلامهم مثل مد وصد ، ويقل نحو دعد وقبق . فكان بعض الناس يقول الفيق فى هذا البيت وهو تصحيف . ويذكرون أن القبق مراد به جبل قاف وليس معنى البيت على ذلك. وانماخلاط ومكس قريتان من جبل القبق فلذلك جمع بينهن .

هذا نوع من تعليق المعرى وتحقيقه فى شعر البحترى وهو أقرب الى شرح المتون الفقهية ، منه الى بيان النواحى الشعرية .

وعرض لنقد أبى تمام أبو الحسن على بن عبد العزيز الشهير

بالقاضى الجرجانى المتوفى سنة ٣٦٦ هـ فى كتاب الوساطة بين المتنبى وخصومه .

وقد بدأ هذا الكتاب بمقدمة فى ذكر أغلاط الجاهليين معتذراً بها عن أغلاط المتنبى . نروى منها قول امرىء القيس :

يا راكباً بلغ إخواننا من كان من كندة أو وائل

فنصب بلغ وقوله :

فاليوم أشرب غير مستحقب إثما من الله ولا واغل

فسكن اشرب وقوله :

لها متنتان خظاتا كما أكب على ساعديه النمر

فاسقط النون من خظاتا لغير إضافة ظاهرة .

وقول لبيد :

تراك أمكنة إذا لم أرضها أو يرتبط بعض النفوس حمامها

فسكن يرتبط وقول طرفة « قد رفع الفخ فماذا تحذرى » فحذف النون . وقول الأسدى :

كنا نرقعها وقد مزقت واتسع الخرق على الراقع

فسكن نرقعها وقول امرىء القيس :

كأن ثبيراً من عرانين وبله كبير أناس فى بجاد مزمل

نخفض مزمل وهو وصف كبير

وبما ذكره من أغاليطهم فى المعانى قول امرىء القيس

وأركب فى الروع خيفانة كسا وجهها شعر منتشر

قال وهذا عيب فى الخيل . وقول زهير :

يخرجن من شربات ماؤها ضحل

على الجذوع يخفن الغم والغرقا

قال والضفادع لا تخاف شيئا وقول الآخر :

بريّة لم تأكل المرققا ولم تذق من البقول الفستقا

فجعل الفستق بقلا

وعرج على شعر أبى تمام فذكر المتكلف فيه والمعقد والمتفاوت ونعى عليه فساد المعنى فى بعض الأشعار ومن قوله فى ذلك « وقصد الأغراض الخفية ، فاحتمل فيها كل غث ثقيل . وأرصد لها الأفكار بكل سبيل . فصار هذا الجنس من شعره اذا قرع السمع لم يصل الى القلب ، إلا بعد إتعاب الفكر وكد الخاطر . والحمل على القريحة . فاذا ظفر به فمن بعد العناء والمشقة . وحين حسره الأعياء وأوهن قوته الكلال . وتلك حالة لا تهش فيها النفس للاستماع لحسن ، والالتذاذ بمستظرف . وهذه جريرة

التكلف ولست أقول هذا غضاً من أبي تمام ولا تهجيناً لشعره، ولا عصبية عليه لغيره. فكيف وأنا أدين بتفضيله وتقديمه وأنتحل موالاته وتعظيمه، وأراه قبلة أصحاب المعاني وقدوة أهل البديع » ومن الأبيات المتكلفة التي أخذها على أبي تمام قوله

جهمية الأوصاف إلا أنها قد لقبوها جوهر الأشياء

والبيت من قصيدته التي يمدح فيها يحيي بن ثابت. وقد ورد في أبيات يصف فيها الخمر قال

وضعيفة فأذا أصابت فرصة قتلت كذلك قدرة الضعفاء
جهمية الأوصاف إلا أنهم قد لقبوها جوهر الأشياء
وكأن بهجتها وبهجة كأسها نار ونور قيدا بوعاء
أودرة بيضاء بكراً طبقت حملا على ياقوتة حمراء
يخفى الزجاجة لونها فكأنها في الكف قائمة بغير إناء

والأبيات من أبدع الشعر في وصف الخمر، وليس من الصواب في النقد أن يذكر هذا البيت على انفراد وتهمل الأبيات الأخرى وهي كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا

وأخذ عليه قوله :

ألم يقنعك فيه الهجر حتى بكلت لقلبه هجرا ببين

قال فهل رأيت أغث من بكلمت فى بيت نسيب

وبكلمت هنا بمعنى خلطت ، وهى ليست من الكلمات الغثه إذا وضح معناها وكانت من الألفاظ المعروفة . وان كنا نستحسن أن تحل محلها مزجت لتكون الأبيات فى مستوى واحد من البساطة .

وأخذ عليه قوله :

أأطلال الرسوم لطال ماقد   أطلت منك أجياد الظباء
بها شغلت دبابيخ البهاء   فضحوة وجهها نشر الضحاء
لنا أيام لم تدم الليالى   بذكر البين عرنين الصفاء
فأضحى البين لايرضى لطرفى   نواه بالبكىّ من البكاء
لقد طلع الفراق على ابن صبرى   فأثكله جلابيب العزاء

ومما ذكره فى معرض السخيف من شعره قوله :

نم وان لم أنم كراى كراك   شاهدى الدمع أن ذاك كذاك
طال ضرى نفسى فداؤك بل من   أنا حتى تكون نفسى فداك
ضاق صدرى بل كيف اسطيع أن أصـ   ـبر إذ كان ناظرى لايراك
ذهبت مقلتاى بالدم والدمع   إلى النار إذ نجت مقلتاك

وقد قرأنا هــذه الأبيات فى ديوان أبى تمام على خلاف ما رواه الجرجانى وهى نقلا عن ديوانه فى باب الغزل :

نم فأن لم أنم كراى كراك　　شاهدى منك أن ذاك كذاك
طال صبرى تفديك نفسى وقلت　　نفسى مثلى عن أن تكون فداك
فى سبيل الهوى فؤادى وما آ　　ى عليه ، لكن على ذكراك
ذهبت مقلتاى بالدم والدمع　　ففى النار إذ مجت مقلتاك
لست أبكى ذهاب عينى لعينى　　غير أنى أبكى لأن لا أراك

ولا يخفى الفرق بين الروايتين . والأبيات بديعة فى بابها .

ونقد كلمة الأيم فى قوله :

حلت محل البكر من معطى وقد　　زفت من المعطِى زفاف الأيم

وشاركه فى ذلك الآمدى فى كتاب الموازنه . قال الجرجانى فجعل الأيم مقـابلا للبكر فى التقسيم والأيم قد تكون بكرا وانمـا هى التى لازوج لها . يقال أمت المرأة تئم وكذلك الرجـل إذا مانت امرأته . وانما لأهل اللغة قولان أحدهما أن المرأة قد تكون أيما إذا لم يكن لها زوج وان لم تكن نكحت قط . والثانى أنها لاتكون أيما إلا وقد نكحت ثم خلت بموت أو طلاق بكرا كانت أو غير بكر بنى عليها الزوج أو لم يبين .

فيتبين أن أبا تمام قد قابل بين البكر والأيم . وظاهر الخطاب يقتضى التغـاير . وقد رد الجرجانى على من جمع بين أبى تمام والشافعى . فى النقد وقد ذهب الشافعى فى قول النبي صلى الله عليه وسلم . الأيم أحق بنفسها من وليهـا والبكر تستأذن فى نفسها إلى أن المراد بالأيم الثيب .

ونرى أن الأيم فى بيت أبى تمام قد حدد معناها بوضعها مقابلة للبكر فى الشطر الأول . وإذا كانت شيئا آخر غـير البكر أو أنها لا تحمل معنى البكر على إطلاقه فالمقابلة جائزه ومقبولة من الشاعر الى حد ما .

وإذا كان الجرجانى يقول فى صدد الدفاع عن المتنبي :

وليس من شرائط النصفة ، أن تنعى على أبي الطيب بيتا شذ ، وكلمة ندرت ، وقصيدة لم يسعده فيها طبعه ، ولفظة قصرت عنها عنايته ، وتنسى محاسـنه ، وقد ملأت الاسماع ؛ وروائعه وقد بهرت ... الخ ، فأنا حريون أن نقول نفس هـذا الـكلام فى أبي تمام .

ولعل خير من عرض للكتابة فى هذا الباب هو أبو القاسم الحسن بن بشر بن يحي الآمدى فى كتابه الموازنه بين أبى تمام

والبحترى . ويتحرج الآمدى فى المفاضلة بين الشاعرين . وهو موضوع كتابه وإن كان يصل بهـذا التحرج إلى رأى سديد ويضع أسسا جديدة لم يسبقه اليها أحد فيقول : إن كنت أدام الله سلامتك ممن يفضل سهل الكلام وقريبه ويؤثر صحة السبك وحسن العبارة وحلو اللفظ وكثرة الماء والرونق فالبحترى أشعر عندك ضرورة . وان كنت تميل الى الصنعة والمعانى الغامضة ، التى تستخرج بالغوص والفكرة ولاتلوى على غير ذلك . فأبو تمام عندك أشعر لامحالة . فأما أنا فلست أنصح بتفضيل أحدهما على الآخر . ولكنى أقارن بين قصيدتين من شعرهما إذا فى الوزن والقافيـة وإعراب القافية وبين معنى ومعنى فأقول أيهما أشعر فى تلك القصيـدة وفى ذلك المعنى . ثم احكم أنت حينئذ على جملة مالكل واحد منهما إذا أخذت علما بالجيد والردىء .

والذى نلاحظه على هذا القول أنه لايقبل على إطلاقه ، إذ أن الصنعة والمعانى الغامضة التى تستخرج بالغوص والتفكير ، ليست كل شعر أبى تمام وإلا فأى غموض فى قوله :

لهف قلبى علىّ لابل عليكا أن تجول العيون فى خـديكا
وعزيز على أن تجتنى الأبصـ ـار زهر الربيع من وجنتيكا

أنت وقف على القلوب بما أضحـ ـيت تهدى وهن وقف عليكا
لاقضى الله لى وصالك أن كنـ ـت أرانى أشتاق الا اليكا
جرحتك العيون باللحظ حتى صرت أخشى عليك من عينيكا

وهى أبيات تسيل رقة وحسنا بل وأى غموض فيما أوردنا له من الشعر فيما تقدم من هذا الكتاب . وأى غموض فى أبياته الرائية فى وصف الربيع وأى غموض فى وصف القلم فى قصيدته التى مدح بها محمد بن عبد الملك الزيات . على أننا لاننفى أن أثر الصناعة والتكلف ظاهر في أبيات متفرقة فى ديوانه . والقول فيها هو ما قاله القاضى الجرجانى فى سقطات المتنبي كما بينا آنفا .

ويستطرد الآمدى مما تقدم إلى حوار بديع يبين فيه احتجاج كل فريق من أصحاب الشاعرين على الفريق الآخر وما ينعاه بعض على بعض ونحن نذكر طرفا من هذا الحوار لطرافته من ناحية ولجمعه خلاصة بليغـــة — لا غنى عن ذكرها هنا — لاحتجاج الفريقين :

قال صاحب أبى تمام : كيف يجوز لقائل أن يقول إن البحترى أشعر وعن أبى تمام أخذ ، وعلى حـذوه احتذى ، ومن معانيه استقى . وباراه حتى قيل الطائى الأكبر والطائى الأصغر واعترف

البحترى بأن جيد أبي تمام خير من جيده . على كثرة جيد أبي تمام فهو بهذه الخصال أن يكون أشعر من البحترى أولى من أن يكون البحترى أشعر منه .

قال صاحب البحترى : أما الصحبة فما صحبه ولا تلمذ له ولا روى ذلك أحد عنه ؛ ولا أرى قط أنه محتاج إليه ، ودليل هذا الخبر المستفيض من اجتماعهما وتعارفهما عند أبي سعيد محمد ابن يوسف الثغرى . وقد دخل اليه البحترى بقصيدته التي أولها :

« أأفاق صب من هوى فأفيقا » . وأبو تمام حاضر . فلما أنشدها علق أبو تمام أبياتا كثيرة منها فلما فرغ من الانشاد أقبل أبو تمام على محمد بن يوسف فقال أيها الأمير ما ظننت أن أحدا يقدم على أن يسرق شعرى ، وينشده بحضرتى حتى اليوم ثم اندفع ينشد ما حفظه حتى أتى على أبيات كثيرة (1) من القصيدة فبهت البحترى ورأى أبو تمام الانكار فى وجه أبي سعيد محمد بن يوسف فحينئذ قال له أيها الأمير والله ما الشعر إلا له . وإنه أحسن فيه الاحسان كله . وأقبل يقرظه ويصف معانيه ويذكر محاسنه ثم جعل يفخر باليمن . وانهم ينبوع الشعر . ولم يقنع من محمد

(1) روينا خبر ذلك مفصلا فى الفصل الأول .

ابن يوسف حتى أُضعف له الجائزة . فهذا الخبر الشنيع يبطل ما ادعيتم ؛ فمن كان يقول مثل هـذه القصيدة التي هى من عين شعره وفاخر كلامه قبل أن يعرف أبا تمام ؛ إلا أن يكون بالخبر ، يستغنى عن أن يصحبه ، أو يتلمذ له أو لغيره فى الشعر . إلا أنه مع هذا لا ينكر أن يكون قد استعار بعض معانى أبى تمام لقرب البلدين ، وكثرة ما كان يطرق سمع البحترى من شعر أبى تمام . فيعلق شيئًا من معانيه ، معتمداً للاخذ أو غير معتمد . وليس ذلك بمانع من أن يكون البحترى أشعر منـه . فهذا كثير قد أخذ من جميل وتلمذ له واستق من معانيه فما رأينا أن أحدا أطلق على كثير أن جميلا أُشعر منه . بل هو عنـد أهل العلم بالشعر والرواية أشعر من جميل . . . فقد علمتم الآن أن هـذه حالة لا توجب لـكم تفضيل أبى تمام على البحترى من أجل أنه أخذ منه شيئا . وأن البحترى يعلو بتوسط ولا يسقط . ومن لا يسقط ولا يسفسف أفضل فى الشعر . وقد اجتمعنا نحن وأنتم على أن أبا تمام يعلو علواً حسنا وينحط انحطاطا قبيحا وشعر البحترى شديد الاستواء والمستوى الشعر أولى بالتقدمة من المختلف صحيحا فهو البحترى لا عليه .

وأما قول البحترى جيده خير من جيدى ورديى خير من رديه ، فهذا خبر ان كان ممن يسقط ويسفسف ، والذى نرويه عن أبى على محمد بن العلاء السجستانى وكان صديق البحترى أنه قال: سئل البحترى عن نفسه وعن أبى تمـــام فقال هو يغوص على المعانى . وأنا أقوم بعمود الشعر . وهـذا الخبر هو الذى يعرفه الشاميون . وسمعت أبا على محمد بن العلاء أيضا يقول كان البحترى عند نفسه أشعر من أبى تمام

قال صاحب أبى تمام : فأبو تمام انفرد بمذهب اخترعه وصار فيه أولا وإماما متبوعا وشهر به حتى قيل هذا مذهب أبى تمام وطريقة أبى تمام . وسلك الناس نهجه واقتفوا أثره وهذه فضيلة عرى عن مثلها البحترى :

قال صاحب البحترى : ليس الامر لاختراعه لهذا المذهب على ما وصفته ولا هو بأول فيه ولا سابق اليه ، بل سلك فى ذلك سبيل مسلم . واحتذى حذوه ،وأفرط وأسرف ،وزال عن النهج المعروف ، والسنن المألوف وعلى أن مسلما أيضا غير مبتدع لهذا المذهب ولا هو أول فيه . ولـكنه رأى هذه الأنواع التى وقع عليها اسم البديع وهى الاستعارة والطباق والتجنيس منشورة

متفرقة في أشعار المتقدمين. فقصدها وأكثر فى شعره منها وهى فى كتاب الله عز وجل موجودة قال الله تعالى « واشتعل الرأس شيبا » وقال تبارك وتعالى « وآية لهم الليل نسلخ منه النهار » وقال « واخفض لهما جناح الذل من الرحمة » فهذه من الاستعارة التى فى القرآن وقال امرؤ القيس :

فقلت له لما تمطى بصلبه وأردف أعجازاً وناء بكلكل

فجعل الليل يتمطى وجعل له أردافا وكلكلا . وقال زهير :

صحا القلب عن ليلى وأقصر باطله

وعرى أفراس الصبا ورواحله

فجعل للصبا أفراساً ورواحل وقال لبيد :

وغداة ريح قد كشفت وقرة إذ أصبحت بين الشمال زمامها

فجعل للغداة يدا وللشمال زماما . . فقدسقط الآن احتجاجكم باختراع أبى تمام لهذا المذهب ، وسبقه اليه ، وصار استكثاره منه وإفراطه فيه من أعظم ذنوبه ، وأكبر عيوبه . وحصل للبحترى أنه ما فارق عمود الشعر وطريقته المعهودة . مع ماتجده كثيرا فى شعره من الاستعارة والتجنيس والمطابقة ، وانفرد بحسن العبارة وحلاوة الألفاظ ، وصحة المعانى حيث وقع

الاجماع على استحسان شعره واستجادته. وروى شعره واستجاده سائر الرواة على طبقاتهم واختلاف مذاهبهم فمن نفق على الناس جميعا أولى بالفضيلة وأحق بالتقدم.

قال صاحب أبي تمام إنما أعرض عن شعر أبي تمام من لم يفهمه لدقة معانيه، وقصور فهمه عنه. وفهمه العلماء والنقاد فى علم الشعر. واذا عرفت هذه الطبقة فضيلته لم يضره طعن من طعن بعدها عليه.

قال صاحب البحترى: إن ابن الاعرابى واحمد بن يحيى الشيبانى وقبلهما دعبل بن الخزاعى قد كانوا علماء بالشعر، وكلام العرب وقد علمتم مذاهبهم فى أبى تمام وازدراءهم بشعره، وطعن دعبل عليـه. وقولهم إن ثلث شعره محال وثلثه مسروق وثلثه صالح وروى عن دعبل أنه قال ما جعله الله من الشعراء بل شعره بالخطب والكلام المنثور أشبه منه بالشعر. ولم يدخله فى كتابه المؤلف في الشعراء، وقال ابن الاعرابى فى شعر أبى تمام ان كان هذا شعرا فكلام العرب باطل.

قال صاحب أبى تمام: فقـــد بطل احتجاجكم بالعلماء وتفضيلكم لشعره عليه لأن دعبلا كان يشنأ أبا تمام ويحسده،

وذلك مشهور معلوم منه فلا يقبل قول شاعر فى شاعر . وأما ابن الأعرابى فكان شديد التعصب عليه ، لغرابة مذهبه ، ولأنه كان يرد عليه من معانيه مالا يفهمه ولا يعلمه. فكان إذا سئل عن شيء منها يأنف أن يقول لا أدرى . فيعدل الى الطعن عليه والدليل على ذلك . أنه أنشد يوما أبياتا من شعره وهو لا يعلم قائلها فاستحسنها وأمر بكتابتها فلما عرف أنه قائلها قال خرقوه. وكان ابن الاعرابى على علمه وتقدمه قد حمل نفسه هذا الظلم القبيح والتعصب الظاهر فما تنكرون أيضا أن تكون حال سائر من ذكرتموه مثل حاله .

قال صاحب البحترى : لاعيب على ابن الاعرابى فى طعنه على شاعر عدل فى شعره عن مذاهب العرب فى الاستعارات البعيدة المخرجه للكلام الى الخطأ والاحالة والعيب فى ذلك يلحق أبا تمام إذ عـدل عن المحجـة الى طريقة يجهلها ابن الاعرابى . وأمثاله من المضطلعين بالسليقة العربية ....

صاحب أبى تمـام : فقد علمتم وسمعتم الرواة وكثيراً من العلماء بالشعر يقولون : جيد أبى تمام لايتعلق به جيد أمثاله ، وإذا كان جيده بهـذه المكانه . وكان من الممكن إغفال رديئه .

واطراحه كأنه لم يقله . فلا يبق ريب أنه أشعر شعراء عصره والبحترى واحد منهم .

صاحب البحترى : انما صار جيد أبى تمام موصوفا ، لأنه يأتى فى تضاعيف الردىء الساقط فيجىء رائقا لشدة مباينته مايليه

صاحب أبى تمام : فتنكرون كثرة ما أخذه البحترى من أبى تمام وإغراقه فى الاستعارة من معانيه ، فأيهما أولى بالتقدمه المستعير أو المستعار منه .

صاحب البحترى : أما ادعاؤكم كثرة الأخذ منه . فقد قلنا إنه غير منكر أن يكون أخذ منه من كثرة ما كان يرد على سمع البحترى من شعر أبى تمام ، ولكن ليس كما ادعيتم وادعاه . أبو الضياء بشر بن تميم لأنه ذكر ما يشترك الناس فيه وتجرى طباع الشعراء عليه فجعله مسروقا ....

* * *

وإذا كان هذا الحوار لم يبين لنا شيئا عن شخصية كل من الشاعرين وأغراض الشعر عند كل منهما . فأنه يقرب إلى الذهن صورة من صور الاختلاف الذى نشب بين النقاد في المقارنة بينهما فأنهما وان تشابها فى بعض المعانى الجزئيـــة ،

يختلفان فى الغرض والمزاج ويبتعدان فى المذهب الشعرى كل الابتعاد .

ويخرج الآمدى بعد هذا الحوار إلى ذكر مساوىء الشاعرين ثم إلى ذكر محاسنهما ويختم كتابه بالموازنه بينهما .

أما المساوىء فمنها ما يتعلق بالسرقات . ومنها ما يتعلق بالمعانى . ومنها ما ينصرف إلى الوزن ومنها ما ينصرف الى اللفظ والسرقة من أهم أبواب النقد عند العرب . وقد الف فيها ابن رشيق صاحب العمدة كتابه الذى أشرنا إليه فى الفصل السابق وتتبين منه أنواعها وأقسامها ، وما يعد منها فى باب السرقة ومالا يعد فى ذلك . ويذكر الآمدى من السرقات ما وجده فى كتب الناس ثم ما وجده بنفسه ويقول فى معرض الكلام عن أبى تمام أن الذى خفى من سرقاته أكثر مما قام ويبدأ هذه السرقات بقول الكميت :

ولا تكثروا فيها اللجاج فأنه   محا السيف ماقال ابن دارة أجمعا

قال أخذه الطائى فقال «السيف أصدق أنباء من الكتب» ونسبة السرقة إلى أبى تمام فى هذا المعنى حيف فى النقد ، وضعف فى التبصر . إذ أن أبا تمام ، انما بدأ قصيدته فى فتح عمورية بهذا

القول . لأنه القول المناسب لمقتضى الحال . ولا حاجة به إلى النظر الى بيت الكميت على الاطلاق . وذلك أن المنجمين كانوا قد أذاعوا بأن المعتصم لا يفتح عمورية . وراسله الروم : إنا نجد في كتبنا أن مدينتنا هذه لاتفتح إلا فى وقت إدراك التين والعنب وبيننا وبين ذلك الوقت شهور . يمنعك من المقام فيها البرد والثلج . فأبى أن ينصرف وأكب عليها حتى فتحها وأبطل ما قالوه فمنطق الحادث قد ظهر على لسان أبى تمام . ولا يعد هذا من السرقة فى شيء . ولا أدرى لماذا أغفل الآمدى الشطر الثاني وهو قوله ، فى حده الحد بين اللهو واللعب ، والشطر الثانى متمم للأول . والبيت هو الوحدة فى الشعر العربى لا الشطر . والشاعر فى الشطر الثانى يزيد فى المعنى ويوسعه ويبرزه . وقد استطرد أبو تمام من هذا البيت إلى أبيات أخرى كلها متصل به مفسر له متمم لما جاء فيه . فذكر أقوال المنجمين وكتب الروم . وكذب ما جاء فيها ووصف انتصار المعتصم . فالفكرة متسلسلة من البيت الأول متصلة بما يليه من الأبيات . وكلها معان وصور لاتوجد فى بيت الكميت ، ولا تلقى ظلا من الشبهة على بيت أبى تمام .

قال الآمدى . وقال مسلم بن الوليد فى صفة الخمر :

قتلت وعاجلها المدير ولم يتد فأذا به قد صيرته قتيلا

أخذه الطائى فأحسن الأخذ فقال :

إذا اليد نالتها بوتر توترت على ضغنها ثم استقادت من الرجل

وإن كان قد أخذها من ديك الجن فلا إحسان له ، لأنه أتى بالمعنى بعينه قال ديك الجن :

تظل بأيدينا تقعقع روحها وتأخذ من أقدامنا الراح ثارها

ولا شك أن المعنى فى بيت أبى تمام هو نفس المعنى فى بيت ديك الجن ، وإن كان فى رأيى أنه يختلف عن قول مسلم بن الوليد ولكن الآمدى يتحرج هنا فى الاتهام . فيقول . وليس ينبغى أن يقطع على أيهما أخذ من صاحبه لأنهما كانا فى عصر واحد يقصد ديك الجن وأبا تمام .

قال الآمدى ، وقال الأعشى :

وأرى الغوانى لا يواصلن امرءا فقد الشباب وقد يصلن الأمردا

أخذ الطائى المعنى والصفة فقال :

أحلى الرجال من النساء مواقعا من كان أشبههم بهن خدودا

وزهد النساء فيمن فقد الشباب معنى مكرور ، ولا يحتاج

النظر فيه إلى سرقة . قال امرؤ القيس :

أراهنّ لا يحببن من قل ماله ولا من رأين الشيب فيه وقوسا

ولعل الآمدى قصد إلى السرقة فى قول الأعشى : وقد يصلن الأمردا وقول أبى تمام . من كان أشبههم بهن خدودا . وإذا عرفنا أن قد فى بيت الأعشى للتقليل تبين لنا أن المعنى جد مختلف فى البيتين . وفى رأينا أن البيت الأول أصح . والمرأة لا تصبو إلى من كان يشبهها من الرجال .

وباب السرقات كبير يستوعب أكثر من نصف الكتاب ومن هذه السرقات ما يعزي الى البحتري ولست أرى الأمر فيها يستدعى زيادة فى الأيضاح عما ذكرناه . وقد ذكرنا القليل الذى يدل على الكثير وان كنا لا نستبعد أن يقع فى شعر البحترى وأبى تمام كلام مسبوق لكثرة روايتهما من أشعار المتقدمين ، وتوارد الخواطر . وما من بيت اتهما بسرقته إلا أولهما خير منه وقد أورد الآمدى أبياتا رواها دعبل الخزاعى . وادعى أن أبا تمام سرقها فى قصيدته المشهورة فى رثاء ابن حميد الطوسى التى يقول فى مطلعها :

كذا فليجل الخطب وليفدح الأمر
وليس لعين لم يغض ماؤها عذر

ودعبل مطعون فى روايته هـذه لما بينه وبين أبى تمام من الكراهية .

قال رجل للحسن بن وهب إن أبا تمـام سرق من رجل يقال له مكنف من ولد زهير بن أبى سلمى وهو رجل من الجزيرة قصيدته التى يقول فيها :

كأن بنى نبهان يوم وفاته
نجوم سماء خر من بينها البدر

توفيت الآمال بعد محمـــد
وأصبح فى شغل عن السفر السفر

فقال الحسن بن وهب هذا دعبل حكاه وأشاعه فى الناس . وقد كذب . وشعر مكنف عندى ثم أمر باخراجه . فأخرجت هذه القصيدة فلم يجد فيها الرجل شيئاً مما قال أبو تمام فى قصيدته ثم دخل رجل على الحسن بن وهب . فقال يا أبا على بلغنى أنك قلت فى أبى تمام كيت وكيت . فهبه سرق هـذه القصيدة كلها وقبلنا قولك . أسرق شعره كله ؟ . فانخذل دعبل واستحيا. فقال له

الحسن بن وهب إن الندم توبة . وهـذا الرجل قد توفى ولعلك
كنت تعاديه فى الدنيـــــا حسدا على حظه منها وقد مات الآن
وحسبك من شعره .

أما الأبيات التى أوردها الآمدى فهـى :

أبعـد أبى العباس يستعتب الدهر
وما بعـده للدهر عتبى ولا عذر

ألا أيها الناعى ذفافة ذا الندى
تعست وشلت من أناملك العشر

ولا مطرت أرضنا سماء ولا جرت
نجوم ولا لذت لشاربها الخمر

كأن بنى القعقاع بعــــد وفاته
نجوم سماء خر من بينها البدر

توفيت الآمال بعد ذفافة
فأصبح فى شغل عن السفر السفر

يعزون عن ثاو تعزى به العلا
ويبكى عليه البأس والمجد والشعر

وما كان إلا مال من قل ماله

وذخراً لمن أمسى وليس له ذخر

وأعجب كيف يورد الآمدى هذه الأبيات فى باب سرقات أبى تمام على أنها من كلام مكنف ، والانتحال فيهـــا ظاهر والتفاوت بين . وقصة الحسن بن وهب معروفة . ! !

أما المعانى فقد ذكر منها فى باب المعايب عن أبي العباس قول أبى تمام :

رقيق حواشى الحلم لو أن حلمه بكفيك ماماريت فى أنه برد

قال أبو العباس : هـذا الذي أضحك الناس منه منذ سمعوه الى هذا الوقت ولم يزد على هذا . وقال الآمدى : والخطأ فى هذا ظاهر لأنى ما علمت أحدا من شعراء الجاهلية والاسلام وصف الحلم بالرقة . وانما يوصف الحلم بالعظم والرجحان. والثقل والرزانة. ونحو ذلك كما قال النابغة :

وأعظم أحلاماً وأكبر سيدا وأفضل مشفوعا اليه وشافعا

والمعنى فى بيت أبى تمام جديد ولا شك . ولا يعيبه أن شعراء الجاهلية والاسلام لم يصفوا الحلم بالرقة . فأبو تمام ولاشك غـير مقيد بما قاله شعراء الجاهلية والاسلام . ورقة الحاشية هنا

دليل على لطف الممدوح وسلاسة مأخذه وعذوبة أخلاقه . أما تشبيه الحلم بالبرد فيأتى من لينه وإحكام نسجه وجمال ألوانه وكل هذه معان بديعة غابت عن الآمدى .

قال : وأنكر أبو العباس على أبى تمام قوله

من الهيف لو أن الخلاخل صورت
لها وشحا جالت عليها الخلاخل

ولم يذكر موضع العيب فيه ولا أراه علمه . وهذا الذي وصفه أبو تمام ضد ما نطقت به العرب . وهو أقبح ما وصف به النساء . لأن من شأن الخلاخيل والبرين أن توصف بأنها تعض فى الأعضاء والسواعد وتضيق فى الأسوق . فاذا جعل خلاخيلها وشحا تجول عليها فقد أخطأ الوصف . . . واذا كان الخلخال وهو الحلقة المستديرة المعروف قدرها وشاحا للمرأة فانه يأخذ أعلى جسدها كله . وإذا كانت كذلك فقد مسخت إلى غاية القماءة والصغر . وصارت فى هيئة الجعل وهذا نقد نوافق عليه الآمدى ولكننا نخالفه فى قوله بعد هذا . ولا يستقبح نحو قول الشاعر :

من رأى مثل حبتى تشبه البدر إذ بدا

يدخل اليوم خصرها ثم أردافها غدا

فهذا هو التهريج المضحك الذى نستقبحه فى الشعر و نعده من الزيف .

ومما أخذه على البحترى قوله في وصف الفرس :

ذنب كما سحب الرداء يذب عن

عرف وعرف كالقناع المسبل

لأن ذنب الفرس اذا مس الأرض كان عيبا . وهذا قديكون صحيحا . وان كان في البيت من جمال الوصف ما يدعو إلى التجاوز وما الحيلة اذا كان الفرس الذى يصفه البحترى هذه صورته . وانما نظر إلى جماله لا الى شيء آخر . وقد وصفه أجمل وصف .

وأخذ على البحترى قوله :

غريب السجايا ماتزال عقولنا

مدلهة فى خلة من خلاله

اذا معشر صانوا السماح تعسفت

به همة مجنونة فى ابتذاله

قال وقوله اذا معشر صانوا السماح معنى ردىء لأن البخيل ليس من أهل السماح فيكون له سماح يصونه . وسواء عليه قال

صانوا السماح أو صانوا السخاء.أو صانوا الجود أوصانوا الكرم. فان هذا كله لا يملك البخلاء منه شيئا وهو منهم بعيد فكيف يصدقونه فان قيل انما أقام السماح مقام الشيء الذى يسمح به وفى مجازات العرب ما هو أبعد من هذا . قيل البحترى لا يسوغ مثل هذا ولا يجوز له لأنه متأخر . ولا سيما أن ليست هنا ضرورة لأنه قد كان يمكنه أن يقول صانوا الثراء مكان صانوا السماح .

والسماح فى رأينا هو ما يسمح به من المال وقد أتى فى البيت من قبيل المجاز . ولا أدرى كيف يكون المجاز وقفا على المتقدمين، ولا يجوز للبحتري لأنه متأخر . فالمجاز من أبواب البلاغة . ويسوغ للمتأخر كما يسوغ للمتقدم .

هذا ما جاء فى باب المعانى . وتأتى بعده الموازنة . وما انتهى اليه الآمدي من محاسن الشاعرين وهو خاتمة الكتاب. ويشتمل هذا الباب على ما افتتحنا به القول من ذكر الوقوف على الديار والآثار ووصف الدمن والاطلال والسلام عليها ، وتعفية الدهور والازمان والرياح والامطار إياها والدعاء بالسقيا لها والبكاء فيها وذكر استعجامها عن جواب سائلها . وما يخلف قطينها من

الوحش وتعنيف الصحابة ولومهم على الوقوف بها ومما ذكره في إحسان البحتري في هذا قوله :

أمحلتي سلمى اسلمـــا
وتعلما أن الهوى ما هجتما
هل ترويان من الأحبة هائما
أو تسعدان على الصبابة مغرما
أبكيكما دمعا ولو أني على
قدر الجوى أبكي بكيتكما دما

ومن جيد شعر أبي تمام قوله :

أرامة كنت مألف كل ريم لو استمتعت بالانس القديم
أدار البؤس حسنك التصابي إلىّ فصرت جنات النعيم
لئن أصبحت ميدان السوافي لقد أصبحت ميدان الهموم
ومما ضرم البرحاء أني شكوت فما شكوت الى رحيم
أظن الدمع في خدي سيفني رسوما من بكائي في الرسوم

قال وهذا من أسهل الكلام وأسلسه نظما ومن أبعد القول من التكلف والتعسف وأشبهه بكلام المطبوعين وأهل البلاغة وقوله فصرت جنات النعيم معنى حسن . ولكن فيه إسراف

أن يجعل داراً خلت من أهلها دار بؤس وهو باك فيها جنات النعيم وقد أتى البحترى بهذا المعنى متبعا فيه أبا تمام ولكنه جاء به على سبيل اقتصاد واعتدال واجتنب افراطه فقال :

يامغانى الأحباب صرت رسوما وغدا الدهر فيك عندى ملوما
الف البؤس عرصتيك وقد كنـ ـت بعينى جنـــة ونعيما

فقال :

الف البؤس عرصتيك وقد كنت بعينى جنة ونعيما

فجعلها جنة ونعيما فيما مضى . ومع هذا فإنى أقول أن بيت أبى تمام أحسن .

ولا أرى إسرافا فى قول أبي تمام لأن المحب يبكى الديار الدارسة وينعاها وهو مع ذلك يعشقها ويصبو اليها ويألفها وينظر اليها النظرة التى وصفها أبو تمام بجنات النعيم . ولقد احتاط الشاعر للمعنى وقواه بقوله حسنك التصابى . وهو معنى صحيح مألوف

وقد غفل الآمدى عن جيد البحترى وأبى تمام . حيث قصر اختياره على هذه الأغراض . ونكتفى بهـذا القدر من رأى المتقدمين فى البحترى وأبى تمام . وهو يعطيك صورة من وجوه النظر المختلفة فى الشاعرين .

وصف الربيع

بين البحترى وأبى تمام

غاية مايصل إليه الشاعر أو المصور إذا أراد أن يصف لنا الربيع . أن يعطينا صورة بديعة تعبر عن جماله ، وتحكى ما يخالج نفسه من الشعور نحو هذا الجمال .

وقد تكون هذه الصورة . منظرا من مناظر الطبيعة ، أو رمزا من الرموز لا يقل فى تعبيره عن ذلك المنظر ، وفى كلتا الحالتين ينقل الينا ذلك الشعور الرفيع الذى يخالج نفس الفنان ، أمام تلك المشاهد التى تخلب اللب وتهز أوتار القلوب. وبقدر مالديه من دقة الحس ، وقوة الانتباه ، وسلامة الذوق ، فى تخير الصورة التى يعبر بها عن تلك المشاهد المديدة ، وبقدر ماعنده من المقدرة على نقلها إلى إحساسنا . تكون قيمة عمله الفنية

وفى وصف الربيع لأبى تمام والبحترى صورتان رائقتان ،يرى القارىء فيهما أسمى مايصل إليه شاعر أو مصور من هذه الناحية .

وإذا كان للربيع جماله الذى يخلعه على كل شىء فى الحياة

فقد كان أخص ما تنبه اليه أبو تمام فى وصفه ؛ صفاء الطبيعة ، وجمال الأجواء .

مطر يذوب الصحو منه وبعده صحو يكاد من الغضارة يمطر
غيثان فالأنواء غيث ظاهر لك وجهه والصحو غيث مضمر

فهو هنا ينقل إلى عالم الحس صورة مستكملة النواحى ، لغير المحسوس . فإذا بك تشعر به وتراه . بل وتكاد تتلمسه بيديك . وهذا نوع رفيع من التصوير الشعرى قل أن يصل إليه شاعر أو مصور .

فاذا جاء الى وصف الربي والرياض ، وما يكسوها الربيع من شتى المحاسن والألوان . أعطاك الصورة الكاملة لما يريد أن ينقله اليك . فهنا الزهر الأبيض يمتزج بأشعة الشمس فيتكون منهما فى الجو لون أزهر رقيق كأشعة القمر . فيهيب الشاعر بصاحبيه وهو فى نشوة اللذة والطرب . أن انظرا معى إلى تلك الفتنة وذلك الجمال ، ودعا هموم الحياة وشغلها ، فليست الحيـــاة فى الربيع إلا منظرا تجتليـه العيون :

ياصاحبى تقصيا نظريكما تريا وجوه الأرض كيف تصور
تريا نهارا مشمسا قد شابه نور الربى فكأنما هو مقمر

دنيا معاش للورى حتى إذا جاء الربيع فإنما هى منظر
أضحت تصوغ بطونها لظهورها نورا تكاد به القلوب تنور
من كل زاهرة ترقرق بالندى فكأنها عين اليك تحدر
تبدو ويحجبها الجميم كأنها عذراء تبدو تارة وتخفر

وهنالك الزهر الأصفر والزهر الأحمر. فلا يكتفى الشاعر بأعطائك صورته ولونه، حتى يعطيك الضوء الذى يلألئهما

* * *

محمرة مصفرة فكأنها عصب تيمن فى الورى وتحضر
من فاقع غض النبات كأنه در يشقق — قبل — ثم يزعفر
أو ساطع فى حمرة فكأنما يدنو إليه من الهواء. معصفر

* * *

فالدر المزعفر فى وصف أبى تمام. يعطينا صورة للأزهار الصفراء، تسطع تحت أشعة الشمس.

أما الأزهار الحمراء، فلم يكتف الشاعر بوصفها بذلك اللون، فهو يرينا تأثيره على الفضاء الذى حوله : فأنت تنعم النظر فيها ثم تحوله. فترى اللون قد تحول معك، فصبغ الهواء الذى حولك.

وليس هذا الوصف ببعيد عن الواقع المحسوس. ولا هو

من صنع الخيال . كما قد يتراءى . ولكنه ينطبق مع الواقع كل الانطباق فقد تكون الألوان من القوة والخلابة ، بحيث لا يغيب تأثيرها على شبكة العين ، بمجرد تحول النظر عنها .

ووصف الربيع بهذه الصورة مما لم يسبق أبا تمام اليه شاعر من الشعراء .

أما البحترى فقد أرانا الربيع فى صورة رمزية بديعة .وكان حريصا على التشخيص فى جميع معانيه . وهـذا نوع آخر من الوصف يحتاج إلى سعة فى الخيال ودقة فى التصوير ، ولطف فى الاحساس ، وقد اجتمعت جميعها فى أبيات البحترى .

فأنت ترى الربيع شخصا طلق المحيا ، ضحوك الوجه يختال فى حلل الحسن والبهاء . فيكاد ينطق بما حوى من الفتنة والجمال :

أتاك الربيع الطلق يختال ضاحكا

من الحسن حتى كاد أن يتكلما

هذه ولا شك صورة مستكملة للربيع يزيدها جمالا ، جزالة اللفظ وقوة التعبير . ولا يقلل من قيمة هذه الصورة ، أن أبا تمام سبقه الى هذا التشخيص . فقال فى احدى أراجيزه :

إن الربيـــع أثر الزمان   لو كان ذا روح وذا جسمان

مصورا فى صورة الانسان   لكان بساما من الفتيان

فليست هذه بالصورة التى تقارن بصورة البحترى ، بل هى على العكس صورة باهتة إلى جانب تلك الصورة الرائعة .

فلم يزد أبو تمام على أنه صور الربيع : ببسام من الفتيان ، قد يكون جميلا وقد لا يكون . وأين ذلك من الربيع الذى يزفه اليك البحترى فى ذلك المهرجان العظيم .

ويستمر الشاعر فيعطيك من صور الأزهار تلك التى يفتحها النوروز فى غسق الظلام :

وقد نبه النوروز فى غلس الدجى   أوائل ورد كن بالأمس نوما

وانظر دقة التصوير الذى يجمع بين يقظة العيون الناعسة وتفتح تلك الأزاهير من الأكمام ، وتأمل كيف استطاع أن يوفق بين هاتين الصورتين

فاذا استكمل للأزهار صورتها على النحو الذى تراه فى البيت ، أومأ الى المعنى الشعرى الذى توحيه فقال :

يفتقها برد الندى فكأنه   يبث حديثاً كان قبل مكتما

وحديث الطبيعة على لسان الأزهار ، آية من آيات البحترى فى ذلك العصر .

وهو يذكرنا بالشاعر الانجليزى الكبير وليم وردسورث الذى يرى فى مناظر الطبيعة صوراً حية ، تخاطب الانسان بلغة الكون ، وتعبر له عن أفكاره . فتنبه البحترى اليه ، وإيراده هذا الايراد البديع نعده من حسناته التى تقابل بالاعجاب

فاذا وصف البحترى الأشجار، والربيع يكسوها تلك البرود الموشاة ، ونسيم الصباح فى نعومته ورقته . لم يغب عنه أن يعطى وصفه تلك الصورة الانسانية الحية :

ومن شجر رد الربيع لباسه   عليه كما وشيت برداً منمنما
أحل فأبدى للعيون بشاشة   وكان قذى فى العين إذ كان محرما
ورق نسيم الصبح حتى حسبته   يجىء بأنفاس الأحبة نعما

وليس من همنا أن نفاضل بين الشاعرين ، فكل منهما قد وصف الربيع وصفاً بديعاً خلاباً . وانما تمتاز الأبيات الأولى بدقة الملاحظة ولطف الاحساس ، وعلى الأخص فى تصوير الأجواء .

وتمتاز الثانية بحسن التصور وسمو الخيال اللذين يظهران فى تشخيص الشاعر المناظر ، وتصويره لما وراءها من الايحاء ، يزيد فى قيمتها جمال الموسيقى وبهجة الألفاظ .

وصف المطر

عند أبي تمام والبحترى

لأبي تمام اتجاه شعرى بديع فى وصف المطر ، وله دقة فى تصوره فى صوره المختلفة . فهناك المطر الرقيق الذى يأتى فى الربيع .صوره فى بدء قصيدته فى وصف الربيع وقد تكلمنا عنها فى الفصل السابق .

وهناك المطر الغزير الذى يصاحبه السكون فلا رعد ولا برق. ولكن ديمة سمحة القياد تهمى على الأرض المتشوقة المستغيثة بشؤبوب طيب بديع ، فيكشف الروض عن رأسه ، وتبدو روعته وينجلي المحل حيث كان :

فاذا الرى بعد محل وجرجا　　ن لديها يبرين أو ملحوب

وهذا نوع آخر من المطر وقد استهل بوصفه قصيدته الرائعة . فى مدح محمد بن عبد الملك الزيات ويقول فيها :

ديمة سمحة القياد سكوب　　مستغيث بها الثرى المكروب

لو سعت بقعة لاعظام نعمى لسعى نحوها المكان الجديب

فهى ماء يجرى وماء يليه وعزال تنشا وأخرى تذوب

لذ شؤبوبها وطاب فلو تسـ طيع قامت فعانقتها القلوب

كشف الروض رأسه واستسر المحل منها كما استسر المريب

فاذا الرى بعـد محل وجرجا ن لديها يبرين أو ملحوب

فوصف هـذه الديمة بالسلاسة واللين ، واتخذ لها صورة الجياد . أو العيس السمحة القياد السهلة المأخذ . ثم وصف أثر هذه الديمة فى الأرض ثم أثرها فى القلوب أبدع وأجمل وصف وقد تبعه المتنبي فى البيت الثانى فقال :

لو تعقل الشجر التى قابلتها مدت محيية اليك الأغصنا

وفى البيت الرابع يصف أبو تمام تتابع الماء ونشوء المطر ثم انسكابه دواليك . فاذا أنت أمام صورة بديعة تريك هذه الديمة وتصور إحساس الشاعر بها ودقة تصوره لها فى الارض والسماء وفى منشئها وانحدارها وحال الارض التى نزلت عليها .

وصورة فى شعر أبى تمام تختلف عما تقدم وتلك هى صورة طر تصحبه الغيوم وتلازمه الرعود والبروق ، ويشتهى فيه الثلج كالكهل بعد السن ويقول فيه :

لم أر عـيرا جمة الدءوب   تواصل التهجير بالتأويب
أبعد من أين ومن لغوب   منها غداة الشارق الهضوب
نجائبا وليس من نجيب   شبائه الأعناق بالعجوب

* * *

فهو هنا يبدأ بوصف السحب ويصورها بالعير الدءوب ، تشبه أذنابها أعناقها لتراكمها وتتابعهـا السريع ثم يستطرد فى وصفها فيقول :

كالليل أو كاللوب أو كالنوب   منقادة لعارض غريب
كالشيعة التفت على النقيب   آخـذة بطاعة الجنوب

والمقصود بالجنوب هنا القلوب . ويسترسـل الشاعر فى الوصف فيصور : إحساس الأرض بهـذه السحب كما يراه فى نفسه فيقول :

لما بدت للأرض من قريب   تشوفت لوبلها السكوب
تشوف المريض للطبيب   وطرب المحب للحبيب
وفرحة الأديب بالأديب   وخيمت صادقة الشؤبوب

ثم يصور صوت الرعد ، وهو ينبعث من عـل ، وتناوح الرياح فى الآفاق فيقول :

فقام فيها الرعد كالخطيب وحنت الريح حنين النيب

ثم يقول فى وصف الأرض فى ردائها المرصع بالأزهار وانتشار الثلوج :

والأرض فى ردائها القشيب فى زهر من نبتها رطيب
بعد اشتهاب الثلج والضريب كالكهل بعد السن والتحنيب
تبدل الشباب بالمشيب كم آنست من حاضر غريب
وغلبت من الثرى المغلوب ونفست عن بارض مكروب

ويختتم تلك الصورة بهذا البيت الرائع :

لذيذة الريق والصبيب كأنها تهمى على القلوب

* * *

ولأبى تمام فى وصف المطر غير ما تقدم قصيدته الدالية التى يقول فى مطلعها :

حماد من نوء له حماد فى ناجرات الشهر لا الدآدى (1)

ومنها :

سيارة سمحـــة القياد مسودة مبيضة الأيادى
سهادة نوامـــة بالوادى كثيرة التعريس بالوهاد

(1) حماد : أى حمدا . والناجرات الشديدة الحر والدآدى ليالى المحاق

نزالة عند رضا العباد   قد جعلت للمحل بالمرصاد
سبقت ببرق ضرم الزناد   كأنه ضمائر الأغماد

وضمائر الأغماد كناية عن السيوف .

* * *

وللبحترى أبيات تدخل فى هذا الباب يقول فيها :

ذات ارتجاز بحنين الرعد   مجرورة الذيل صدوق الوعد
مسفوحة الدمع بغير وجد   لها نسيم كنسيم الورد
ورنة مثل زئير الأسد   ولمع برق كسيوف الهند
جاءت بهاريح الصبا من نجد   فانتثرت مثل انتثار العقد
فراحت الأرض بعيش رغد   من وشى أنوار الربا فى برد
كأنما غدرانها فى الوهد   يلعبن من حبابها بالنرد

ويروى أن لهذه الأبيات قصة وهى أنه دخل على المتوكل وهو جالس ببعض البرك والماء يسقط فيها ، فقال له قل فى هذا يا بحترى قال البحترى ولم أكن ذا بديهة ولكنى اعتزلت جانبا حتى قلت الأبيات ، فقال المتوكل أنظروا ماذا فى الخزائن من ماء الورد العتيق فادفعوه الى البحترى قال فأخذت من ذلك شيئا وبعته بمال . وانما دفع اليه المتوكل ماء الورد لقوله :

لها نسيم كنسيم الورد . وهذه القصة تفسر الاختلاف الظاهر بين أبيات البحترى وأبى تمام .

فأبو تمام إنما يصف المطر فى صورة واسعة متفتحة وكثيرا ما عرض له ذلك وهو على سفر بعيد أو مشرف على منظر من مناظر الطبيعة الفسيحة الأرجاء .

ولكن البحتري هنا يصف المطر فى صورة محدودة أمام بركة من برك المتوكل مهما قيل فيها فأنها من صنع الانسان . فجاء وصفه على مافيه من جمال واتقان منطبقا على الصورة التى يراها ويبدو التقشف والبداوة فى أبيات أبى تمام ويلوح الترف والغضارة فى وصف البحترى وكلا الوصفين بديع فى نوعه صادق فى تصويره .

القصـــور

فى شـــعر البحترى

هذا الباب من الأبواب التى سما فيها البحترى ، وبزغ نجمه وتجلت شاعريته ، وقد أتاح له قربه من الخلفـاء . وملازمته بعضهم من عوامل الترف ما امتزج بروحه الشاعرة . فنظم فى وصف القصور التى تفننوا فى إبداعها ، آيات فنه . وإذا كانت تلك القصور قد عفى عليها الدهر وذهب أثرها ، فان شعر البحترى فيها لا زال باقيا يريك صور البذخ الذى كان يستمتع به الخلفاء فى أواسط القرن الثالث الهجرى ويقول فيها :

حلل من منازل الملك كالأ — نجم يلمعن فى سواد الظلام

مفحمات تعيي الصفات فما تد — رك إلا بالظن والأوهام

فـكأنا نحسها فى الأمانى — ونراها فى طارق الأحلام

وقد وصف البحترى البركة التى أنشأها المتوكل في قصر الجعفرى فجمع بين دقة التصوير ورقة الموسيقى وعذوبة اللفظ .

فوصف صفاء البركة وتدفق المياه فيها بقوله :

فلو تمر بها بلقيس عن عرض   قالت هي الصرح تمثيلا وتشبيها
تنصب فيها وفود الماء معجلة   كالخيل خارجة من حبل مجريها
كأنما الفضة البيضاء سائلة   من السبائك تجرى فى مجاريها

ثم وصف النسيم وهو يمر عليها فيحدث غضونا على صفحتها. وانتقل من ذلك إلى وصف الشمس وهى تلقى أشعتها عليها ثم الغيث وهو يهمى من فوقها. ووصفها فى الليل والنجوم متألقة فوقها مزدهرة على أديمها وانتقل بعد ذلك إلى وصف الأسماك وهى تسبح فيها فلا تبلغ غايتها، ووصفها وهى تنزل إلى أغوارها ثم ترتفع إلى سطحها. وقد بلغ فى ذلك جميعه غاية ما يتطلبه الوصف من جمال فيقول :

إذا علتها الصبا أبدت لها حبكا
مثل الجواشن مصقولا حواشيها
فحاجب الشمس أحيانا يضاحكها
وريق الغيث أحيانا يباكيها

إذا النجوم تراءت فى جوانبها   ليلا حسبت سماء ركبت فيها
لا يبلغ السمك المحصور غايتها   لبعد ما بين قاصيها ودانيها

يعمن فيها بأوساط مجنحة   كالطير تنقض فى جو خوافيها
لهن صحن رحيب في أسافلها   إذا انحططن وبهو في أعاليها

ووصف البحترى الصبيح والمليح وهما قصران بناهما المتوكل :

واستتم الصبيح فى خير وقت   فهو مغنى أنس ودار مقام
ناظر وجهـه المليح فلو يسـتطيع حياه معلناً بالسلام
ألبسا بهجة وقابل ذا ذا   لك فمن ضاحك ومن بسام
مستمد بجدول من عباب   الماء كالأبيض الصقيل الحسام
وإذا ما توسط البركة الحسـناء القت عليه صبغ الرخام

وفى هذا الوصف تبدو بهجة القصور وأنسها ، وكأنها تضحك أو تبتسم عما أودعت من جمال وحوت من نعيم ، ومن بديع ما فيها التفاته إلى صبغ الرخام وهو يعكس لونه على البركة

ووصف قصر الكامل الذى بناه المعتز بالله بقصيدته التى و ل فيها :

لما كملت روية وعزيمة   أعملت رأيك في ابتناء الكامل
وغدوت من بين الملوك موفقا   منه لأيمن حالة ومنـازل
ذعر الحمام وقد ترنم فوقه   من منظر خطر المزلة هائل

وفى البيت الثالث من هذه الأبيات صورة من نوع التأثير

الذاتى فى الشعر . وذلك أن يعطيك الشاعر الأثر الذى يريده فى نفسك بصورة تحدث ذلك الأثر فأن وصف الحمام بالذعر يعطيك تلك الصورة الرهيبة لذلك المنظر الشاهق .

وقد أبدع البحترى القول فى وصف زجاج القصر ووصف الرخام وقد خلعت عليه ألوان الجدران المختلفة . ووصف فى تلك القصيدة السقوف المحلاة بألوان الذهب وقد شع سناها على الظلام فى أبيات متألقة المعانى ، متينة السبك . وكأنما انتقل اليها صفاء المنظر وجماله وعظمته ويقول فيها :

وكأن حيطان الزجاج بجوه لجج يمجن على جنوب سواحل
وكأن تفويف الرخام إذا التقى تأليفه بالمنظر المتقابل
حبك الغمام رصفن بين منمر ومسير ومقارب ومشاكل

لبست من الذهب الصقيل سقوفه
نورا يضىء على الظلام الحافل
فترى العيون يجلن فى ذى رونق
متلهب العالى أنيق السافل

فاذا أعطاك صورة القصر بما فيها من الألوان البديعة الساحرة انتقل بك إلى وصف بستانه :

وكأنما نشرت على بستانه سيراء وشى اليمنة المتواصل
أغنته دجلة إذ تلاحق فيضها
عن صوب منسجم الرباب الهاطل
وتنفست فيه الصبا فتعطفت
أشجاره من حبل وحوامل
مشى العذارى الغيد رحن عشية
ما بين حالية اليدين وعاطل

ووصف الصبا وهي تتنفس بين الأشجار فتتعطف أفنانها كالعذارى الغيد وصف بديع يزيده حسنا تصوير الثمار والأزهار بتلك الأوصاف الرائعة. ولم يسبق البحترى شاعر من المتقدمين فى وصف القصور على هذا النحو الفريد.

وصف ايوان كسرى

للبحترى

لعل قصيدة البحترى فى وصف إيوان كسرى، هى خير ما نظم، بل هى من خير ما نظم فى الشعر على الاطلاق. ولا إخال أثرا من الآثار خلده الشعر بمثل ما خلدت قصيدة البحترى ذلك الايوان. وقد جرى فى هـــذه القصيدة على طريقة التسلسل والاستقصاء وأخرج فيها الصور فى شتى المظاهر والألوان. فتنتقل من معنى نفسى الى معنى حسى. ومن صور ملموسة تتقراها بيدك، الى صور ملحوظة تتقراها بذهنك، وانتهى من ذلك الى الـكلام عن بناة الايوان وما كان لهم من العظمة والفخار، وقد خلع عن نفسه فى ذلك القدس كل ما فطر عليه العربى من التعصب لجنسه في أبيات تفيض بالرقة وصدق الاحساس :

حلل لم تكن كاطلال سعدى   فى قفار من المهامه ملس
ومساع لولا المحاباة منى   لم تطقها مسعاة عنس وعبس

ومنها :

ذاك عندي وليست الدار داري

باقتراب منها ولا الجنس جنسي

غير نعمي لأهلها عنـــد أهلي

غرسوا من ذكائها خير غرس

أيدوا ملكنا وشدوا قواه

بكماة تحت السنوّر دعس

وأراني من بعـــد أكلف بالأشـ

ـراف طرا من كل سنخ وأس

ويبدأ البحترى هذه القصيدة بأبيات حزينة مؤثرة تمثل حالة الشاعر المعنوية ، فيلج ذلك الأثر ، وقد هيأ لك الجو الشعرى الذي كان يحيط به ويملأ نفسه فيقول :

صنت نفسي عما يدنس نفسي   وترفعت عن جدى كل جبس

والجبس اللئيم .

وتماسكت حين زعزعني الدهـ   ـر التماسا منه لتعسي ونكسي

ويقول :

حضرت رحلي الهموم فوجهـــت إلى أبيض المدائن عنسي

أتسلى عن الحظوظ وآسى   لمحل من آل ساسان درس

ذكرتنيهم الخطوب التوالى ولقد تذكر الخطوب وتنسى

ثم ينتقل بك إلى وصف صورة إنطاكية ، وهى مرسومة على الجدار ، وتمثل معركة بين كسرى أنوشروان والروم فى أنطاكية ، وهنا تتجلى مقدرة البحترى الفنية ، فيعطيك وصف الصورة بألوانها وشياتها ، ثم يريك وقعها فى نفسه ، وينفذ إلى ما وراء تلك الصورة من الرهبة والرعب فى وصف المعركة

ويقول فى ذلك :

فاذا ما رأيت صورة أنطا كية أرتعت بين روم وفرس

والمنـايا مواثل وأنو شر

وان يزجى الجيوش تحت الدرفس

فى اخضرار من اللباس على أصـ

فر يختـال فى صبيغة ورس

وعراك الرجال بين يديه

فى خفوت منهم واغماض جرس

من مشيح يهوى بعامل رمح ومليح من السنان بترس

يغتلى فيهم ارتيـابى حتى تتقراهم يداى بلمس

(١) الدرفس : الراية .

وقد فطن البحترى إلى كل ما يطلب من الشاعر فى هذه الآبيات فلم يترك شيئا تحتاجه النفس فى تلك الصورة إلا نقله فى اجمال يغنى عن التفصيل . .

ثم هو يصف الايوان وعظمته ، وما حل به من الكآبة بعد فراق أهله ويتخيل فيه وفود كسري خلف الزحام والقيان وراء المقاصير يرجعن الأغانى والأناشيد :

وكأن اللقـاء أول من أمـــس ووشك الفراق أول أمس

ومن قوله فى وصف الايوان :

وكأن الايوان من عجب الصـ
نعة جوب فى جنب أرعن جلس
يتظنى من الكآبة أن يبـــدو لعينى مصبح أو ممسى
مزعجا بالفراق عن أنس إلف
عز ، أو مرهقا بتطليق عرس
عكست حظه الليالى وبات المـ
شترى فيه وهو كوكب نحس
فهو يبدى تجلدا وعليـه كلكل من كلاكل الدهر مرسى

وقد تبع البحترى فى هـذا المعنى الشريف الرضى ،

قال فى وصف بيت قديم :

بالى المعالى أطرقت شرفاته   إطراق منجذب القرينة عانى

ومن قول البحترى فى وصف الايوان :

مشمخر تعلو له شرفات   رفعت فى رءوس رضوى وقدس

لابسات من البياض فما تبـ   ـصر منها إلا غلائل برس

ليس يدرى أصنع أنس لجن   سكنوه أم صنع جن لإنس

غير أنى أراه يشهد أن لم   يك بانيه فى الملوك بنكس

* * *

فكأنى أرى المراتب والقو   م إذا ما بلغت آخر حسى

وكأن الوفود ضاحين حسرى

من وقوف خلف الزحام وخنس

وكأن القيان وسط المقاصير   يرجعن بين حو ولعس

وكأن اللقاء أول من أمـ   ـس ووشك الفراق أول أمس

وتمتاز هذه القصيدة فوق ما فيها من الوصف البديع ، بعذوبة اللفظ وموسيقية الجرس . وقد اختار لها البحر الموائم لأوصافها ، واتخذ لها تلك القافية التى تخلع على القصيدة لونا من الرهبة والتأثير ؟

الحكمة فى شعر أبى تمام

من تمام القول فى هذا الكتاب، أن نعرض للحكمة فى شعر أبى تمام — وأنا فى الحقيقة أتحرج من إدخال الشعر فى هذا الباب . فالشعر فى الواقع شىء غير الحكمة . والحكمة المجردة التى تجرى مجرى المثل لا قيمة لها من الناحية الشعرية .

وقد كان بعض الشعراء يرمى من نظم الحكم الى خلودها، وسيرها على الألسنة ، لأنها كلام عام لا يحمل معنى شخصياً أو حدثاً معيناً . . . والحكمة فى رأيى إذا خلت من صورة شعرية ، أو التفاتة ذهنية ، أو معنى نفسانيا ، خرجت من دائرة الشعر . ودخلت فى باب المتون المنظومة .

ومن الانصاف لأبى تمام أن نقول إنه لم يكن يعنى بهذا النوع من الشعر ، وله من الحكم ما يأتى بغير قصد وتغلب عنده الصورة الشعرية على الحكمة . أو يكمل كل منهما الآخر حتى يصيرا شيئا واحدا . من ذلك قوله فى قصيدة الى أحمد ابن أبى دؤاد :

وإذا أراد الله نشر فضيلة   طويت أتاح لها لسان حسود

لولا اشتعال النار فيما حولها   ما كان يعرف طيب عرف العود

والصورة الشعرية ظاهرة في هذين البيتين، وهي والحكمة شيء واحد ومثل ذلك قوله :

لا تنكروا عطل الكريم من الغنى

فالسيل حرب للمكان العالي

ويبدو التصور الشعري والاحساس النفسي في مثل قوله :

دنيا معاش للورى حتى اذا   جاء الربيع فانما هي منظر

وتظهر الالتفاتة الفكرية في قوله :

قد ينعم الله بالبلوى وان عظمت

ويبتلي الله بعض القوم بالنعم

وربما وردت الحكمة في شعره وهو بعرض الغزل مثل قوله :

نقل فؤادك ما استطعت من الهوى

ما الحب إلا للحبيب الأول

كم منزل في الأرض يألفه الفتى

وحنينه أبداً لأول منزل

فيمتزج الحنين بالعبرة ، والهوى بالحكمة . وتسير النفس الشاعرة ، والنفس المفكرة جنبا إلى جنب ، في ظلال وارفة من

الجمال . وقد ترد على لسانه وهو يتغنى بوصف الخمر مثل قوله :

وضعيفة فاذا أصابت فرصة   قتلت كذلك قدرة الضعفاء

فنرى وصف الخمر يقترن بالحكمة العالية فى وصف الضعيف اذا وجد المقدرة على البطش . وكثيرا ما تمثلوا بقوله هذا فى وصف المرأة . وربما جاء بالحكمة الخالدة وهو بمعرض الهجاء مثل قوله فى هجاء عتبة بن أبى عاصم .

همم الفتى فى الأرض أغصان المنى

غرست وليست كل حين تورق

واذا عرفنا تأثير الحكمة فى الطبيعة العربية ، ومبلغ مالها من القوة فى الحياة الفكرية والأدبية فى عصر أبى تمام وما تقدمه من عصور الدولة الاسلامية بل وفى عصور الجاهلية تبين لنا قيمة الحكمة فى شعر أبى تمام وما كان ينفسه الشعراء منها .

روى صاحب الأغانى قال :

« حدث هارون بن عبد الله المهلبى قال . كنا فى حلقة دعبل ، فجرى ذكر أبى تمام ، فقال دعبل كان أبو تمام يتبع معانى فيأخذها . فقال له رجل فى مجلسه . وأى شيء من ذلك أعزك الله؟ قال قولى :

وإن امرؤ أسدى الىّ بشافع
اليه ويرجو الشكر منى لأحمق
شفيعك فاشكر فى الحوائج إنه
يصونك عن مكروهها وهو يخلق

فقال الرجل فكيف قال أبو تمام ؟ فقال قال :

فلقيت بين يديك حلو عطائه
ولقيت بين يدى مر سؤاله
واذا امرؤ أسدى اليك صنيعة
من جاهه فكأنها من ماله

فقال والله لئن كان أخذه منك لقد أجاد فصار أولى به منك، وان كنت أخذته منه فما بلغت مبلغه

ولكننا نخطيء اذا وصفنا أبا تمام بالحكمة ووقفنا عند هذا الحد، تمشيا مع قول من قال : المتنبى وأبو تمام حكيمان والشاعر البحترى فالأغراض الشعرية كثيرة فى شعره وانما تأتى الحكمة عرضا فى سياقها . فهى حلية فى ذلك الاكاليل الذى تتزين به هامة الشاعر وإن لم تكن أزهى ما فيه ، لحلى والزينات .

- فن القول : للأستاذ أمين الخولى الأستاذ بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول ، توجيه جديد فى دراسة البلاغة العربية على أساس علم النفس وفلسفة الفن وعلوم اللغة وثمنه ٣٥ قرشا

- النقد الأدبى : أصوله ومناهجه : للكاتب المعروف سيد قطب ، كتاب يتحدث عن النقد متناولا الشعر والقصة والأقصوصة والتمثيلية والتراجم والبحث والمقالة ... وثمنه ٢٥ قرشا

- النحو الجديد : تأليف الأستاذ عبد المتعال الصعيدى ، دراسة لأعظم ثورة على نحو سيبويه مع وضع أصول جديدة للنحو ... ... وثمنه ٢٠ قرشا

- فى الأدب الحديث : للأستاذ عمر الدسوقى الأستاذ بكلية دار العلوم بجامعة فؤاد ، دراسة لعوامل النهضة الأدبية فى العصر الحديث من سياسية واجتماعية ، وعرض لأشهر الشخصيات الأدبية المعاصرة ... ... وثمنه ٣٥ قرشا

- الكلام فى شعر البحترى وأبى تمام : للأستاذ محمد طاهر الجبلاوى : نشأة النقد عند العرب ، رأى المتقدمين فى شعر البحترى وأبى تمام ، وصف الربيع والمطر بين البحترى وأبى تمام ، القصور فى شعر البحترى ثم الحكمة فى شعر أبى تمام ... وثمنه ١٢ قرشا

- أغاريد السحر : ديوان شعر للأستاذ على الجندى المدرس بكلية دار العلوم أربعة دواوين فى ٣٧٠ صفحة محلاة بالصور الرمزية وهى : من الأعماق ، أصداء الحوادث ، أنفاس الأشجان ، نفح الغوالى تجمع بين الديباجة الفاخرة والمعنى الدقيق والخيال الرائع ... وثمنه ٣٠ قرشا

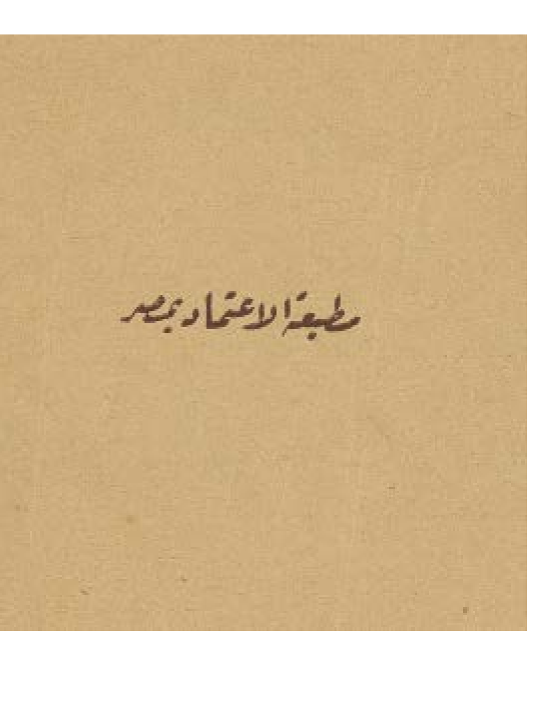
- المسرحية فى شعر شوقى : للأستاذ محمود حامد شوكت المدرس بالمدارس الثانوية الأميرية بحث فى شعر شوقى وتقديم لتاريخ المسرح المصرى مع تحليل ونقد كل مسرحية وثمنه ٢٠ قرشا

- هسيود : شاعر إغريقى نادى بالسلم أداة للتعامل والمحبة دستوراً للحياة ، لقب بنبى عصره؛ وقد تضمنت منظومته الأعمال والأيام من حكم وعظات ونقد اجتماعى صريح وبه أول تقويم زراعى ، أول كتاب تربوى سمحت الأجيال المختلفة بتدريسه ؛ ترجمة الأستاذ أمين سلامة ليسانسيه فى الآداب اللاتينية ... ... وثمنه ١٥ قرشا

- شعر الحرب فى أدب العرب : للدكتور زكى المحاسنى ، بحث من الأبحاث الدقيقة التى تناولت جانبا مهجورا من الأدب العربى منذ نشأته حتى عصر المتنبى ... وثمنه ٤٠ قرشا

تصويب

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٧	٥	إنشاء	إنشاد
٨	٣	حتى ظننت	حتى ظننت قوافيه
٤٤	٥	يطلع	يظلع
٤٤	١٣	الخطوب	الحظوظ
٤٧	١٠	عقد	عقل
٦٦	٨	الايطاه	الأيطاء
٧٢	١١	بكاتى	بكانى


مطبعة الاعتماد بمصر